بلاغة مشاهد القصّ في القرآن الكريم
قصة أصحاب الجنة أنموذجا

د/ عبد الرحمن رجا الله السلمي

ملخص البحث:

يتناول هذا البحث دراسة مشاهد القص في قصة أصحاب الجنة الواردة في سورة القلم دراسة بلاغية أدبية. وقد تناولت في تمهيده، خلاصة قصة أصحاب الجنة في صورة القلم، ومفهوم القصة في القرآن الكريم. ثم جاء المبحث الأول، وفيه تناولت مشاهد القصة وكانت المشاهد على النحو التالي : المشهد الأول : حبكة المؤامرة.المشهد الثاني : صورة التدمير والإهلاك.المشهد الثالث: الانطلاق نحو تنفيذ المؤامرة.المشهد الرابع : رؤية الجنَّة بعد إهلاكها وتوبتهم بعد ذلك.

وفي المبحث الثاني كانت الدراسة الفنية وفيها تناولت : *أسلوب القصّ وعرض الأحداث، تصوير المشاهد، والإيقاع النَّغمي. ثم كانت الخاتمة وفيها أوردت أهم النتائج والتوصيات. والله أسأل أن يجعله خالصاً لوجه الكريم. وصلى الله على نبينا محمد وآله وصحبه أجمعين.*

المقدمة:

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على أشرف الأنبياء والمرسلين نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين، وبعد:

فإن القرآن الكريم هو المرجع الأساس الذي ينبغي أن ترجع إليه الفنون الإسلامية التي هي فنون إنسانية رفيعة المستوى، وذلك من أجل استلهام أسلوبه المعجز وطريقته في التعبير والأداء، وإبراز خصائصه الجمالية.

وفي أثناء التأمل في قصص القرآن الكريم لا تخطئ العين روعة مشاهد القصص القرآني وجماله؛ من خلال طريقة العرض وتنسيق الأداء وبراعة التصوير، يستوي في ذلك جميع قصص القرآن الكريم.

وقد دفعني هذا التأمل إلى اختيار قصة من قصص القرآن الكريم؛ من أجل تذوقها تذوقاً جماليًا، واستلهام ما في مشاهدها من إعجاز بياني آسر يصلح أن يكون مثالاً يحتذى في عرضه وطريقة أدائه.

وفي القرآن الكريم قصص بلغت ذروة الإعجاز، على قصرها وشدة إيجازها المكثف، وإصابة جوهر المعنى، عبر كلام موجز، وإشارة دالّة؛ مما يعجز عن الإتيان بمثله البشر قاطبة.

ومن تلك القصص قصة أصحاب الجنَّة الواردة في سورة القلم، فقد عرضت هذه القصة عرضاً بيانياً مميزاً من خلال مشاهد مثيرة، حتى كأنَّ السامع أو القارئ لها يشهد أحداثها وفصولها تتوالى أمام عينيه تنبض بالحياة والحركة؛ مما دفعني لاختيارها لتكون مدارًا للبحث والدراسة .

ويسعى البحث – إن شاء الله – لتحقيق الأهداف التالية:

- تعزيز الوعي الفني والجمالي للقصص القرآني، والدعوة إلى تذوقه تذوقاً بلاغياً وأدبياً.
- الكشف عن الملامح البلاغية والأدبية المتآزرة في قصة أصحاب الجنّة.

- تأكيد أنَّ للقصة القرآنية منهجاً متميـزاً فـي بنائها المحكم، وصياغتها الدقيقة، وعرضـها المشوق.
- إبراز أهمية المنهج البلاغـي والأدبـي فـي الكشف عن المعاني والإقناع بها.
- دراسة القصّة القرآنية دراسة بلاغية وأدبيـة وفق رؤية تراعي وضعه المقدس، وتأخذ في الحسبان خصوصيته التي تميزه عن غيره من النصوص البشرية.

إطار البحث :

يقتصر البحث على دراسة قصة أصحاب الجنة الواردة في سورة القلم وهي قوله تعالى:

﴿ إِنَّا بَلَوْنَٰهُمْ كَمَا بَلَوْنَآ أَصْحَٰبَ ٱلْجَنَّةِ إِذْ أَقْسَمُوا۟ لَيَصْرِمُنَّهَا مُصْبِحِينَ ﴿١٧﴾ وَلَا يَسْتَثْنُونَ ﴿١٨﴾ فَطَافَ عَلَيْهَا طَآئِفٌ مِّن رَّبِّكَ وَهُمْ نَآئِمُونَ ﴿١٩﴾ فَأَصْبَحَتْ كَٱلصَّرِيمِ ﴿٢٠﴾ فَتَنَادَوْا۟ مُصْبِحِينَ ﴿٢١﴾ أَنِ ٱغْدُوا۟ عَلَىٰ حَرْثِكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰرِمِينَ ﴿٢٢﴾ فَٱنطَلَقُوا۟ وَهُمْ يَتَخَٰفَتُونَ ﴿٢٣﴾ أَن لَّا يَدْخُلَنَّهَا ٱلْيَوْمَ عَلَيْكُم مِّسْكِينٌ ﴿٢٤﴾ وَغَدَوْا۟ عَلَىٰ حَرْدٍ قَٰدِرِينَ ﴿٢٥﴾ فَلَمَّا رَأَوْهَا قَالُوٓا۟ إِنَّا لَضَآلُّونَ ﴿٢٦﴾ بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ ﴿٢٧﴾ قَالَ أَوْسَطُهُمْ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ لَوْلَا تُسَبِّحُونَ ﴿٢٨﴾ قَالُوا۟ سُبْحَٰنَ رَبِّنَآ إِنَّا كُنَّا ظَٰلِمِينَ ﴿٢٩﴾ فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَلَٰوَمُونَ ﴿٣٠﴾ قَالُوا۟ يَٰوَيْلَنَآ إِنَّا كُنَّا طَٰغِينَ ﴿٣١﴾ عَسَىٰ رَبُّنَآ أَن يُبْدِلَنَا خَيْرًا مِّنْهَآ إِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا رَٰغِبُونَ ﴿٣٢﴾ كَذَٰلِكَ ٱلْعَذَابُ ۖ وَلَعَذَابُ ٱلْءَاخِرَةِ أَكْبَرُ ۚ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ﴾ [سورة القلم : ١٧-٣٣] .

خطة البحث:

جاء هذا البحث في تكوينه محتوياً على مقدمة وتمهيد ومبحثين وخاتمة.

المقدمة : أوردت فيها أهمية الموضوع وإطاره وخطته ومنهجه.

التمهيد : تناولت فيه :

مفهوم القصة في القرآن الكريم.

خلاصة قصة أصحاب الجنّة

المبحث الأول: مشاهد القصة وتناولت فيه :

- المشهد الأول: حبكة المؤامرة.
- المشهد الثاني: صورة التدمير والإهلاك.
- المشهد الثالث: الانطـلاق نحـو تنفيـذ المؤامرة.
- المشهد الرابع: رؤية الجنَّة بعد إهلاكهـا، وتوبتهم بعد ذلك.

المبحث الثاني : الدراسة الفنية، وفيه تناولت:

- أسلوب القصّ وعرض الأحداث.
- تصوير المشاهد.
- الإيقاع النَّغمي.

ثم كانت **الخاتمة**، وفيها أوردت أهـم النتـائج والتوصيات.

وأما عن مصادر البحـث ومراجعـه فقـد اعتمدت أولاً على النص القرآني للقصة تـدبراً وتأملاً؛ ألتحم معه وأعيش في أجوائه، ثم اتكـأ البحث بعد ذلك على مصادر ومراجع كثيرة كان أهمها كتب التفسير المختلفة، خاصّة ذات البعـد البلاغي، إضافة إلى المؤلفات البلاغية واللغوية القديمة والحديثة، وقد أثبتها في آخر البحث.

منهج البحث :

حرصت في هذا البحث على أن أخرج عن طريقة سرد القاعدة البلاغية النظرية، المبنية على الأمثلة المجتزأة من سياقاتها؛ إلى المنهج التطبيقي التحليلي القائم على التذوق الجمالي للقصة في سياق النص القصصي كاملاً، والكشف عن جماليات النظم، وأثر ذلك في إبراز مظاهر الإعجاز، من خلال ملاحظة العلاقات الوثيقة بين مكونات النص القصصي، بحيث يبدو النص متناسقاً ومترابطاً في تحقيق هدفه وغايته في التأثير والإقناع.

والله أسأل أن يبارك في هذا الجهد، وأن يجعله خالصاً لوجهه الكريم، إنه سميع مجيب الدعاء، وصلى الله على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

التمهيد وفيه :

- خلاصة قصة أصحاب الجنة.
- مفهوم القصّة في القرآن الكريم.

خلاصة قصة أصحاب الجنة :

توسع المفسرون في تفصيل قصة أصحاب الجنَّة، فقيل: إنَّ هذه الجنَّة كانت لرجل صالح من أهل الكتاب ، وقيل: من أهل الحبشة، وقيل: من أهل اليمن، وذلك بعد رفع عيسى عليه السلام بقليل(١).

والجنَّة في الأصل: الأشجار الكثيفة المظلّلة، ثم أطلقت على الحديقة؛ لما فيها من كثرة الأشجار الكثيفة، وهي المراد هنا(٢)، وكانت جنَّة عظيمة ومشهورة في عصرها، ويمكن أن يستدل على عظمتها وشهرتها بتعريفها باللام، فوصفها بذلك يشير إلى كونها جنَّة شهيرة عندهم(٣)، يعرفها أهل الكتاب والعرب آنذاك، ويمكن أن يكون التعريف هنا للكمال أي الجنة الكاملة في إعدادها وحسنها وكثرة الخيرات بها(٤).

وكان صاحبها الصالح يستبقي من حصاد جنته وثمرها قوت سنته ويتصدق بالباقي على المحتاجين، ويترك للمساكين منها وقت الصِّرَام ما أخطأه المنجل، وألقته الريح، أو بَعُدَ عن البساط الذي يبسط تحت النّخلة، فيجتمع لهم شيء كثير، وكان يعيش على ذلك اليتامى والمساكين والأرامل.

وكان أبناؤه يضيقون بذلك الصنيع، ويحاولون حمله على الشح والبخل بما يملك، فلما مات صارت إلى ولده، وكانوا ثلاثة نفر، فمنعوا الناس خيرها، وبخلوا بحق الله فيها، وأقسموا فيما بينهم أن يتسللوا إلى جنتهم وقت الحصاد في الصباح الباكر، ليجنوا ثمر جنتهم، ولا يبقون منه شيئاً للمساكين والفقراء، وبينما هم نائمون، طاف على جنتهم طائف، اقتلع النخل والأشجار والثمار، وترك الجنّة صريماً جرداء.

فلما أصبحوا، تنادوا ليغدوا إلى جنتهم، وانطلقوا متسللين، وهم يتخافتون: ألاّ يدخلنَّها اليوم عليهم مسكين، فما إن رأوها حصيداً خامدة، حتى ثابوا إلى رشدهم، وأدركوا أنَّهم كانوا ضالين وأقبل بعضهم يلوم بعضاً، وتضرعوا إلى الله أن يغفر لهم ما كان من طغيانهم وظلمهم.

مفهوم القصة في القرآن الكريم:

القصّة مشتقة من القصّ، والمصدر يدل على تتبع الشيء واقتفاء أثره(٥)، ومنه قوله تعالى: ﴿ وَقَالَتۡ لِأُخۡتِهِۦ قُصِّيهِۖ ﴾ [القصص: ١١] ، أي تتبعي أخباره وما انتهى إليه أمره.

ويسمى ذكر الأخبار السالفة قصًّا؛ لأنَّه مأخوذ من قصَّ الأثر، فكأنَّ حكاية أخبار السابقين تشبه تتبع خطاهم وتقصي آثارهم.

وتتبع الخبر والإعلام به هو قصٌّ له، وفي ذلك يقول الحقُّ تبارك وتعالى:﴿ نَحۡنُ نَقُصُّ عَلَيۡكَ أَحۡسَنَ ٱلۡقَصَصِ ﴾ [يوسف: ٣].

والقصة القرآنية: هي حديث من القرآن الكريم ينبئ عن آثار الغابرين، ويحكي أحداثاً ماضية من أجل العِظة والاعتبار(٦).

وهذه الأنباء والأحداث لم تتلبس بشيء من التخيل والتوهم، ولم يدخل عليها شيء غير الواقع، وقد اشتملت على ما لم يشتمل عليه غيرها من القصص من الإثارة والتشويق وحسن العرض والتصوير مع قيامها على الحقائق المطلقة.

وقد أخبر سبحانه أنَّ هذا القصص أحسن القصص؛ « لأنَّ بعض القصص لا يخلو من حسن ترتاح له النفوس، وقصص القرآن أحسن من قصص غيره من جهة حسن نظمه وإعجاز أسلوبه، وما يتضمنه من العبر والحكم؛ فكل قصص في القرآن هو أحسن القصص في بابه، وكل قصة في القرآن هي أحسن من كل ما يقصُّه القاصّ من غير القرآن، وليس المراد أحسن قصص القرآن حتى تكون قصة يوسف - عليه السلام - أحسن من بقية قصص القرآن»(٧). والنفس البشرية تنفعل مع القصة القرآنية، وتتأثر بها وتنساق مع أحداثها، وتشعر فيها بحسن وجمال يهجم على النفس.

وقد جعل كثير من العلماء القصص القرآني وجها من وجوه الإعجاز البياني؛ فالإتيان بقصة من مثل قصص القرآن لم يكن قطٌّ في قدرة أحد من المخلوقين، ولذلك وقع فيها الإعجاز كما وقع في سائر موضوعات القرآن الكريم ويستوي في الإعجاز - كما قال العلماء - كثير القرآن وقليله، وطويل سوره وقصارها، وكل ما فيه من أخبار وقصص وأنباء(٨).

فقصص القرآن أحسن وأكمل في كل شيء لأنَّها صادرة « من العليم الحكيم، فهو يوحي ما يعلم أنَّه أحسن نفعاً للسامعين في أبدع الألفاظ والتراكيب؛ فيحصل منه غذاء العقل والروح وابتهاج النفس والذوق مما لا تأتي بمثله عقول البشر »(٩).

وقد تعددت آراء الباحثين في أنواع القصة القرآنية :

فمنهم من يجعلها نوعين : أولهما القصة التاريخية، ويفرع منها ما يسميه بالقصة التاريخية التمثيلية، وثانيهما القصة التمثيلية(١٠). ومنهم من يجعلها ثلاثة أقسام ويضيف إلي النوعين السابقين القصة الغيبية(١١).

والقصة التمثيلية هي : « كل قصة بدئت بما ينبئ أنَّها مثل مضروب لمشابهة حال المخاطبين

لأحداثها، أو كانت غير منسوبة إلى أشخاص معينين، ودلت أحداثها على إمكان وقوعها من بعد أكثر من مرّة، ومن أبرز ما يدخل فيها : قصة صاحب الجنتين في سورة الكهف، وأصحاب الجنَّة في سورة القلم »[١٢].

والقصة التمثيلية التي تضرب مثلاً هي قصة تصور الحق والواقع، وأحداثها قد وقعت فعلاً وحوار أشخاصها قد صدر منهم، وكل ما يقصّ فيها من أقوال وأفعال وحركات قد وقعت بلا زيادة ولا نقصان، وهي تلتقي مع القصة التاريخية في اعتمادها على عاملي الزمان والمكان، إلا أنَّها نوع من التمثيل الذي يعد من ضروب البلاغة ومن أفانين البيان.

وتستعار القصة التي وقعت في زمن غابر (مورد المثل) إلى الزمن اللاحق المشابه تماماً للغابر في أحداثه ومواقفه وصراعاته (مضرب المثل)؛ ولذلك أطلقوا عليها في علم البلاغة (استعارة تمثيلية) حذف أحد طرفيها وهو المشبه في الحالة الغابرة، ولسان حالها مؤداه: أنَّ حالتكم أيها المخاطبون في كذا وكذا تشبه حالة من سبقكم في كذا وكذا[١٣].

وللتمثيل أثر كبير في إظهار المعاني واضحة جلية وتأكيدها في نفوس المخاطبين ولضرب الأمثال والنظائر شأن جلي في إبراز مكنونات المعاني، ورفع الأستار عن الحقائق، حتى يريك المتخيل في صورة المحقق، والمتوهم في معرض المتيقن والغائب كأنَّه شاهد[١٤].

وقد أكدّ عبد القاهر الجرجاني / أثر التمثيل في تقوية المعاني وتأكيده فبين أنَّه إذا جاء في أعقاب المعاني أو برزت هي في معرضه ونقلت عن صورها الأصلية إلى صورته « كساها أبَّهة وكسبها منقبة ورفع من أقدارها، وشبَّ من نارها، وضاعف قواها في تحريك النفوس لها، ودعا القلوب إليها، واستثار لها من أقاصي الأفئدة صبابةً وكَلَفاً، وقَسَر الطباع على أن تعطيها محبَّةً وشغفاً... فإن كان حجاجاً كان برهانه أنور، وسلطانه أقهر، وبيانه أبهر... وإن كان وعظاً، كان أشفى للصدر ، وأدعى إلى الفكر، وأبلغ في التنبيه والزَّجر، وأجدر بأن يُجلىَ الغياية، ويبصر الغاية، ويبرئ العليل ويشفي الغليل »[١٥].

المبحث الأول : مشاهد القصة

وفيه المشاهد التالية:

- المشهد الأول : حبكة المؤامرة.
- المشهد الثاني : صورة التدمير والإهلاك.
- المشهد الثالث : الانطلاق نحو تنفيذ المؤامرة.
- المشهد الرابع : رؤية الجنَّة بعد إهلاكها وتوبتهم بعد ذلك.

هذا النّصّ القصصي بأحداثه ومشاهده وعناصره الأخرى يعد نموذجاً للقصة في القرآن الكريم، وهي تمثل من ناحية الأداء عرضاً مميزاً وفريداً؛ لما فيها من حيوية في العرض ومفاجآت مشوقة، حتى كأنَّ السامع أو القارئ يشهد القصة حيَّة تقع أحداثها أمام عينيه، وتتوالى المشاهد بين يديه، وليست مجرد أحداث تروى أو قصة تحكى.

وقد عرضت هذه القصّة من خلال مشاهد مثيرة في عرضها وتصويرها وبنائها من خلال

مسارات مختلفة، فيها الشخصيات والأحداث والحوار والحالات النفسية والمفاجآت والإثارة والتشويق، وكل ذلك جاء بأسلوب بياني مصور وإيقاع نغمي مؤثر.

وحتى ندرك سياق هذه المشاهد يحسن أن نعرف ما سبقها، وهو قوله تعالى: ﴿إِنَّا بَلَوْنَاهُمْ كَمَا بَلَوْنَا أَصْحَابَ الْجَنَّةِ﴾ والبلاء والابتلاء : الامتحان يكون بالخير والشر[16]، والضمير في ﴿بَلَوْنَاهُمْ﴾ عائد على كفَّار قريش. والبلوى المذكورة هنا بلوى بالخير فإنَّ الله أمدَّ أهل مكة بنعمة الأمن ونعمة الرزق وجعل الرزق، يأتيهم من كل مكان، ويسّر لهم سبل التجارة في الآفاق، ثم أكمل لهم النعمة بإرسال رسولٍ فيهم؛ ليكمل لهم صلاح أحوالهم، ويرشدهم إلى ما فيه خيرهم وهدايتهم، فدعاهم إلى الإيمان بالله وتوحيده والإقرار بعبوديته، ولكنَّهم أعرضوا عن ذلك، وطغوا، ولم يقدروا النعم التي ساقها الله إليهم، ووجه المشابهة بين حال أهل مكة، وحال أصحاب الجنة هو «الإعراض عن طلب مرضاة الله وعن شكر نعمته »[17]، فالتشبيه في هذه الآية تشبيه تمثيلي وهو ما كان وجه الشبه فيه وصفاً مركباً من متعدد[18].

وهذا التشبيه التمثيلي تعريض بالتهديد لأهل مكة « بأن يلحقهم ما لحق أصحاب الجنة من البؤس بعد النّعيم والقحط بعد الخصب، وإن اختلف السبب في نوعه فقد اتحد جنسه، وقد حصل ذلك بعد سنين؛ إذْ أخذهم الله بسبع سنين بعد هجرة النبي ﷺ إلى المدينة »[19] .

والمماثلة بين المشبّه: أهل مكة، والمشبّه به: أصحاب الجنّة، « مماثلة في النوع، وإلا فإنَّ ما توعدوا به من القحط أشد مما أصاب أصحاب الجنَّة وأطول »[20].

وضمير المتكلم في قوله ﴿إِنَّا بَلَوْنَاهُمْ﴾ للإشعار والتنويه بعزة الله وقدرته وعظمته، فهو بمقتضاها يبلو ويمتحن، فتربو المهابة منه. ونلحظ في هذا التشبيه أن المشبّه به (حسياً)، وهو أصحاب الجنّة، وهذا يزيد المعنى وضوحاً وتأكيداً وقوة ؛ وذلك لأنَّ « النفس إلى المحسوس أميل منها إلى المعقول »[21] وهذا التشبيه تمهيد بين يدي القصة يتضمن المغزى الحقيقي الذي سيقت من أجله القصة، وهو بيان عاقبة البطر، والجشع، والإعراض عن طلب مرضاة الله، وشكر نعمته ، فلنحاول أن نراها ونتأملها، حسب المشاهد والأحداث، كما هي في سياقها القرآني.

المشهد الأول : حبكة المؤامرة

وهو المتمثل في قوله تعالى: : ﴿إِذْ أَقْسَمُوا لَيَصْرِمُنَّهَا مُصْبِحِينَ وَلَا يَسْتَثْنُونَ﴾ وهو مشهد يصور حال أصحاب الجنّة، وهم يبيّتون مؤامرة حرمان المساكين من حقوقهم التي اعتادوا الحصول عليها منذ أيّام والدهم الصالح.

لقد صور هذا المشهد اجتماعهم وتآمرهم على أن يحصدوا ثمر جنتهم عند الصباح ويستأثروا به دون المساكين، وأقسموا على ذلك، وعقدوا النية عليه، وباتوا ليلتهم عازمين ومؤكدين لفعلهم الشنيع.

وقد بدأ هذا المشهد معتمداً على أداة أسلوبية هي **(إذْ)** وهي ظرف زمني مرتبط بوقت انعقاد قسمهم ﴿إِذْ أَقْسَمُواْ﴾ وهنا إشارة إلى العناية بزمن الخطاب، إضافة إلى ما يبعثه التعبير بـ **(إذْ)** الظرفية من تهيئة النفس لتلقى ما يعقبها فهي بمثابة إعلان لبدء عرض الأحداث . وقوله : ﴿لَيَصْرِمُنَّهَا ﴾ مشتق من الصّرم، وهو: القطع، ومنه حصد الزرع وجني الثمر، والصريم: المقطوع والمحصود[22].

وظاهر الآية أن خطيئتهم التي أخذوا بها، هي التصميم والعزم على صرم جنتهم والاستئثار بكل ثمرها وحرمان المساكين منها.

وهذا التصميم مستفاد مما في الصّرم من معنى الخزن والانتفاع بالثمر، ولأنّ الصّرم لا يتعارض مع إعطاء شيء من المجذوذ لمن يريدون، جاء قوله ﴿وَلَا يَسْتَثْنُونَ﴾ محققا هذا التصميم والعزم على الاستيثار بكل ثمر الجنّة وعدم الإنفاق منه، وأجمل ذلك اعتماداً على ما هو معلوم من تفصيل هذه القصة[23]، وبناءً عليه ففي الآية إيجاز قصر[24].

وقوله: ﴿إِذْ أَقْسَمُواْ﴾ أي معظمهم، وإلا فالأوسط قال لهم: لا تفعلوا، واصنعوا ما كان يصنع أبوكم من الإحسان، وكأنَّه تعالى طواه لأنه لم يؤثر شيئاً[25]، والقسم هنا يدل على تأكيد عزمهم وإصرارهم على عدم إعطاء الفقراء والمساكين شيئاً، يؤكد ذلك التعبير بـ ﴿**أقسموا**﴾ دون **(حلفوا)** ؛ لأن القسم يستعمل في القرآن في الأيمان الصادقة المؤكدة بخلاف **(الحلف)** فإنه يستخدم في الأيمان الكاذبة، ولذا جاء دائماً مع المنافقين، حتى عندما جاء مع غير المنافقين جاء في مواضع الحنث، كما في قوله تعالى: ﴿ ذَلِكَ كَفَّارَةُ أَيْمَانِكُمْ إِذَا حَلَفْتُمْ ﴾ [المائدة : من الآية٨٩] هذا بخلاف القسم فيأتي دائماً في مواضع الصدق والتأكيد، ولذا يكثر فيه مجيء ﴿ وَأَقْسَمُواْ بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ ﴾ [الأنعام:من الآية، ١٠٩] .

والتعبير بالقسم وتأكيد الفعل المضارع باللام ونون التوكيد في قوله: ﴿إِذْ أَقْسَمُواْ لَيَصْرِمُنَّهَا﴾ يتلاقى أولاً مع عزمهم وإصرارهم وصدق نيتهم في تأكيد عدم الإعطاء، ويتلاقى ثانياً مع قوله : ﴿وَلَا يَسْتَثْنُونَ﴾ ، وهو إلى جانب ذلك يصور شدة عزمهم وإصرارهم على تحقيق ما تحالفوا عليه، وكأنهم جزموا أنها في أيديهم وطوع أمرهم وأنّه ليس ثمّ ما يمنعهم منها.

وقوله﴿مُصْبِحِينَ﴾ أي في أول وقت الصباح كي لا يشعر بهم المساكين فلا يعطونهم منها شيئاً. وقوله :﴿وَلَايَسْتَثْنُونَ﴾ قيل لا يثنون عزمهم عن حرمان المساكين وعدم إعطائهم شيئاً منها، وقيل: لا يقولون : إن شاء الله[26].

قال الزمخشري: « فإن قلت: لم سمّى استثناءً وإنما هو شرط ؟ قلت: لأنَّه يؤدي مؤدى الاستثناء من حيث إنَّ معنى قولك : لأخرجنَّ إن شاء الله، ولا أخرج إلا أن يشاء الله واحد »[27] .

وعلى هذا القول ففي الآية **(إدماج)** وهو في اللغة: إدخال الشيء في الشيء واستتاره فيه، واصطلاحاً: أن يضمن المتكلم كلاماً ساقه لمعنىً

آخر بشرط أن لا يصرح به ولا يشعر في كلامه بأنَّه مسوق لأجله، وهو من فنون البديع[٢٤] وبيان ذلك أنَّ وجه تسمية **(إن شـــاء الله)** اســـتثناءً أنَّ أصل صيغته فيها حرف الاستثناء، وهـــو **(إلاّ)** فإذا اقتصر أحد على (إن شاء الله) دون حرف الاستثناء أطلق على قوله ذلك استثناءً؛ لأنه على تقدير: **إلا أن يشاء الله.** على أنّه لما كان الشرط يؤول إلى معنى الاستثناء أطلق عليـــه اســـتثناء نظراً إلى المعنى وإلى مادة اشتقاق الاستثناء[28].

والتعبير عن الماضـــي بلفـــظ المضـــارع ﴿وَلَا يَسْتَثْنُونَ﴾ والقصـــة قـــد مضـــت خـــلاف الظاهر، والأصل في الكلام العـــادي أن يقـــال: (أقسموا ولم يستثنوا) وإنَّما عدل عـــن ذلـــك – والله أعلم – لاستحضار الحال العجيبة التي كانوا عليها وهو البخل الشديد الذي اتصفوا به فمـــن ترسخه فيهم كأنَّه يتجدد شيئاً فشيئاً.

وهذا المشهد على قصـــره رصـــد اجتمـــاع أصحاب الجنَّة، وما تآمروا عليه مـــن حرمـــان المساكين، وما حصل منهم من مكرٍ وإصـــرار، واتفاقهم على التنفيذ في الصباح الباكر، بإيجـــاز بديع يترك للقارئ أن يستحضر بمخيلته ما يمكن أن يقال في مثل أجواء التآمر والمكر والخداع ، فلندعهم في غفلتهم وكيدهم الذي بيّتوه، ولننظـــر ماذا جرى لهم في هجعة الليل، وهم نائمون.

إنَّ أسلوب القصّ يبرز للمتلقي مفاجأة لم تكن في الحسبان، رسمت خيوطها في خفاء، وحركة خفية حدثت في الظّلام وأصحاب الجنّة غافلون، وهذا ما يصوره المشهد الثاني.

المشهد الثاني: صورة التدمير والإهلاك

هذا المشهد يحتوي على تدمير جنتهم وما فيها من زروع وثمار، وهو المتمثل في قوله تعالى: ﴿فَطَافَ عَلَيْهَا طَآئِفٌ مِّن رَّبِّكَ وَهُمْ نَآئِمُونَ فَأَصْبَحَتْ كَٱلصَّرِيمِ﴾.

وهو مشهد جاء في أعقاب مشهد التآمر وكيد هؤلاء الإخوة؛ ليلقي بظلاله الموحية بوجود قوَّة عظيمة تدبّر أمور الكون .

لقد دمّرت جنتهم بما فيها من زروع وثمار بقوة خفية في جنح الظلام، وهم نائمون فأصبحت تلك الجنَّة محترقة الثمـــار والـــزروع، فوقـــع الحرمان بهم قبل غيرهم وكان جـــزاؤهم مـــن جنس عملهم.

وتأمل ما توحي به هذه الآيات فالفـــاء فـــي قول: ﴿فَطَافَ﴾ توحي بسرعة ما عوقبوا به من التدمير والإزالة عقب عزمهم على منع المساكين مباشرة، وعدى الفعل **(طاف)** بحـــرف **(علـــى)** لتضمنه معنى: التسلط والاســـتيلاء[29]، وكـــأن الإحراق قد استولى على جميع أجزائها، وقوله: ﴿طَآئِفٌ﴾ مسند إليه وهو نكرة، وتنكير المســـند إليه له أغراض متعددة منها الدلالة على التعظيم والتهويل، بمعنى أن المسند إليه أعظم مـــن أن يعيَّن ويعرّف[30]؛ ﴿طَآئِفٌ﴾ وإنَّمـــا نُكّـــر هنـــا تعظيماً لما أصاب جنتهم. قـــال ابـــن عاشـــور: «وتنوين (طائف) للتعظيم أي: أمرٍ عظيم، وقـــد بينّه بقولـــه: ﴿فَأَصْبَحَتْ كَٱلصَّرِيمِ﴾ فهـــو طـــائف سوء»[31].

ولم يعين جنس الطائف لظهور أنَّه من جنس ما يصيب الجنّات من الآفات، ولا يتعلق غرض بتعيين نوعه؛ لأنَّ العبرة في الحاصل به[32].

وأصل الطواف: المشي حول الشيء من كل جوانبه يقال : طاف بالشيء طوفاً ومطافاً: استدار حوله وجاءه من نواحيه، وأطاف فلان بالأمر: إذا أحاط به[33]، وأريد به هنا تمثيل حالة الإصابة للشيء كله بحال من يطوف بمكان[34]، والتعبير بـ (طاف) فيه إيحاء إلى إحاطة الهلاك والفناء بجميع جوانب هذه الجنة، بحيث لم يبق فيها جزء صالح، وهذا يتلاقى مع قوله ﴿كَالصَّرِيمِ﴾ ، بما فيه من معنى إحاطة سواد الليل بكل الأجزاء والجوانب، بحيث لا يبقى جزء بعيداً عن سواد الليل كما أن (طاف) فيها معنى تكرار الفعل، وهذا يؤكد على عظم الإصابة وقوتها، وكأنّ إحراق الجنة تكرر حتى لا يبقى فيها جزء من غير إحراق؛ وعلى هذا ففي الآية استعارة تمثيلية؛ لأنَّ قوله: ﴿فَطَافَ عَلَيْهَا﴾ بمعنى أرسل عليها ، ولهذا قال القونوي: «التعبير بالطواف عن الإرسال للمبالغة في الإحراق والإحاطة بجميع جوانبه كالطواف وهو استعارة مصرحة تبعية غريبة »[35].

ووجه الاستعارة أنَّه شبّه الإرسال بالطواف للمبالغة في الإحاطة والشمول ثم حذف المشبّه (الإرسال) وبقي المشبه به وهو (الطواف) على سبيل الاستعارة التصريحية، وسميت تصريحية لأنَّه صرَّح فيها بذكر المشبه به فقط.

وأمَّا قوله : تبعية فلأنَّ الاستعارة التبعية لا بد أن تجرى على المصدر، وهو الطواف أولاً، ثم يشتق من الطواف الفعل الماضي، وهو(طاف) فالاستعارة في قوله: ﴿فَطَافَ عَلَيْهَا﴾ وأصله **(أرسل عليها)**، وأما كونها غريبة فلأن وجه الشبه الجامع بين الطرفين كان دقيقاً يحتاج في إدراكه إلى تأمل ودقة نظر – والله تعالى أعلم.

ولا يفوت المتأمل أن يلحظ جمال جناس الاشتقاق : وهو ما اجتمع فيه اللفظان في أصل واحد[36] وذلك بين **(طاف)** و**(طائف)** وجمال هذا الأسلوب يعود إلى ما يضفيه من إحداث الانسجام والتناسب في الكلام من خلال الانسجام الصوتي الناشئ عن المماثلة في الاشتقاق، كما يلحظ أيضا التجانس المقرون بالتقابل بين ﴿لَيَصْرِمُنَّهَا﴾ و﴿كَالصَّرِيمِ﴾ ؛ فقد ا لتقى النّغم الصوتي مع التقابل والتضاد، وهذا من شأنه أن يظهر المعنى ويقره في الوجدان.

وقوله: ﴿مِن رَّبِّكَ﴾ تأكيد على أنَّ هذا العذاب صادر عن الله، وفي ذلك تخويف للمخاطبين من كفَّار قريش، وغرس للعظمة والمهابة في النفوس، وفيه أيضا إيحاء بأن الإهلاك والإحراق وإن كان في ظاهره نقمة إلا أنه في باطنه وحقيقة أمره نعمة جاءت من الرب عزّ وجلّ، وهذا يتلاقى مع توبتهم ورجوعهم إلى الله بعدها.

وقد ألمح البقاعي رحمه الله إلى ذلك بقوله: «ولما كان هذا مقتاً في الصورة أخبر بأنَّه لطف وتربية في المعنى بقوله: ﴿مِن رَّبِّكَ﴾ أي المعروف بالعظمة التي لا تحد، وبالإحسان إليك، فهو جدير بأن يؤدب قومك؛ ليقبلوا منك، كما أدب أصحاب الجنة بما أوجب توبتهم، وهو

الحقيق بتربية العباد؛ يعقلوا عنك، ويكونون خليقين بالتجنب للدنيا، والإقبال على المعاني»[37] والجملة الاسمية في قوله: ﴿وَهُمْ نَآئِمُونَ﴾ تدل على الثبات والدوام وهي حالية وفائدتها تصوير حالتهم، وتقييد وقت الطائف الذي حل بجنتهم ، وتدل أيضاً على غفلتهم عما يحدث لجنتهم في ذلك الوقت، وبذلك يكونون قد أخذوا على حين غرة كما كانوا ينوون أن يفعلوا مع المساكين، وبذلك يكون جزاؤهم من جنس مكرهم وتدبيرهم.

والفاء في قوله﴿ فَأَصْبَحَتْ﴾ حرف عطف وهي تفيد سرعة التعقيب بدون مهلة أو تراخٍ في الزمن مما يصور سرعة العذاب وشدته، وإنما جاء التعبير بـــ (فأصبحت) ولم يقل فصارت أو فكانت، وذلك للدلالة على أمرين:

١- وضوح الهلاك والإحراق وظهوره ظهوراً تاماً، بحيث يدركه من له أدنى بصر لهذه الجنّة، إذ الصبح فيه معنى الوضوح والظهور، كما يقال أفصح الصبح لذي عينين.

٢- تحقيق معنى المفاجأة بالنسبة لأصحاب الجنة، إذ وقت الصبح هو الذي أرادوا أن يجنوا الثمر فيه، ولا يعطوا الفقراء والمساكين شيئاً كما هو واضح من إقسامهم على جمعها في ذلك الوقت المبكر ﴿إِذْ أَقْسَمُوا۟ لَيَصْرِمُنَّهَا مُصْبِحِينَ﴾ فكأن الوقت الذي أرادوا فيه منع الفقراء والمساكين صار هو وقت المنع لهم أيضاً، وهذا من تمام العدل في المجازاة، وهذا أيضاً فيه تأكيد على شدة المصيبة عليهم، لأنها جاءت في الوقت الذي يظنون فيه أنهم سيأخذون تمام النعمة لهم، فإذا بهم في ذلك الوقت يجدون تمام النقمة عليهم، وهذا أشد وأنكى على نفوسهم؛ ولذا كثر لفظ أصبح في مواضع الهلاك والعذاب والنّدم[38].

وإنما اختير لفظ **(الصريم)** ؛ لأن فيه غزارة في المعنى، ويعطي تفسيرات متعددة يحتملها السياق، فقيل: الصريم الليل، والمعنى: أصبحت كالليل؛ لأنَّها اسودّت لما أصابها، وقيل الصريم : النَّهار، والمعنى : أصبحت كالنّهار، لأنَّها ابيضت كالحصيد، ومن ذلك قولهم: صريم الليل والنَّهار، وقيل: إنَّ الصريم الرّماد الأسود، وقيل: أصبحت كالمصرومة أي المقطوعة[39].

وعلى جميع الأقوال التي فسرت بها الآية نجد أن التشبيه في قوله: ﴿كَٱلصَّرِيمِ﴾ تشبيه تمثيلي حيث شبّه صورة الجنَّة وما آلت إليه من الهلاك بصورة الليل، ووجه الشّبه الاسوداد بالاحتراق[40] أو تشبيهها بالنَّهار لابيضاضها من فرط يبسها، ووجه الشّبه يبسها وذهابها حتى لم يبق منها شيء[41] أو تشبيه الجنَّة وهي محترقة بالرملة التي لا تنبت شيئاً، ولا يتوقع منها نفع[42].

والمشّبه به هنا (حسي) وهو (المصروم) وهذا أدعى للبيان والوضوح، وآكد في ترسيخ الصورة ــ كما سبق ــ وذلك ؛ « لأنَّ العلم المستفاد من طرق الحواس أو المركوز فيها من جهة الطبع وعلى حّد الضرورة يفضل المستفاد من جهة النظر والفكر في القوّة والاستحكام وبلوغ الثقة فيه، كما قالوا: ليس الخبر كالمعاينة، ولا الظنّ كاليقين؛ فلهذا يحصل بهذا العلم هذا

الأنس؛ أعني الأنس من جهة الاستحكام والقوّة »[43].

ومما يزيد الصورة حسناً وجمالاً وجود الطباق في الآية من جهتين الأولى: أن يقال: إنَّ من معاني الصريم: **الليل**، وهذا المعنى يتطابق مع **(أصبح)** وعليه ففي الجمع بين **(أصبحت)** و **(الصريم)** محسن الطباق، ومن جهة أخرى أن الجمع بين لفظين أحدهما **(فعل)** وهو **(أصبح)** والآخر **(اسم)** وهو **(الصريم)** يعدّ أحد أقسام الطباق[44]، ولا شك أنَّ مجيء الطباق في الأسلوب « سلساً طيعاً غير متكلف يزيد في إيضاح المعنى وإظهاره وتقويته، وذلك عن طريق المقارنة بين الضدين، وتصوّر أحد الضدين فيه تصوّر للآخر، وعلى هذا فالذِّهن عند ذكر الضد يكون مهّيأً للآخر ومستعداً له، فإذا ورد عليه ثبت وتأكد فيه »[45].

ولا يفوت المتذوق جمال جناس الاشتقاق وعذوبة إيقاعه، وذلك بين قوله: **(ليصرمنّها)** و**(كالصريم)** و**(صارمين)** مما أضفى على الأسلوب تنغيما صوتيا عذباً تطرب له الأذن، وهذه الألفاظ مشتقة من مفردة **(الصرم)** وكل مفردة منها تؤدي وظيفتها البلاغية في تصوير الحالة النفسية لأصحاب الجنة، ففي **(ليصرمنّها)** وما توحيه من دلاله على القطع والقطف الكلي للثّمر، تصوير لحالة تلك النفوس وما يعتمل فيها من مشاعر الأنانية والجشع تجاه الآخرين، وهي بإيقاعها الشديد تصّور الشخصية بجانبها المادي الصرف من خلال تنفيذ الفعل بشدة وقسوة كما في مفردة **(صارمين)** .

وهذا المشهد على قصره يصوّر تقابلاً ثنائيا بين حدثين: **(تدبير بشري)** و **(تدبير إلهي)** يظهر من خلال هذا التقابل عجز التدبير البشري وضعفه أمام تدبير الله وقوته، فلندع الجنّة وما ألمّ بها مؤقتاً لننظر ماذا يصنع المبيّتون الماكرون في صباحهم الباكر؟!

المشهد الثالث: الانطلاق نحو تنفيذ المؤامرة

هذا المشهد يتضمن تجمع أصحاب الجنّة صباحاً وسيرهم إلى بستانهم لتنفيذ المؤامرة. وهو المشهد المتمثل في قوله تعالى: ﴿ فَنَادَوْا۟ مُصْبِحِينَ أَنِ ٱغْدُوا۟ عَلَىٰ حَرْثِكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰرِمِينَ فَٱنطَلَقُوا۟ وَهُمْ يَتَخَٰفَتُونَ أَن لَّا يَدْخُلَنَّهَا ٱلْيَوْمَ عَلَيْكُم مِّسْكِينٌ وَغَدَوْا۟ عَلَىٰ حَرْدٍ قَٰدِرِينَ ﴾ .

فهذه الآيات تصوّر هؤلاء القوم، وهم يستيقظون مبكرين وينادي بعضهم بعضاً ؛ لتنفيذ ما اعتزموا عليه.

ويبدأ هذا المشهد بقوله تعالى: ﴿ فَنَادَوْا۟ ﴾ والفاء هنا عاطفة والجملة معطوفة على جملة **(أقسموا)**.

قال البقاعي رحمه الله: « ولمّا كان لقوة عزمهم على ما أقسموا عليه كأنَّهم كانوا على ميعاد سبَّب عنه قوله: ﴿ فَنَادَوْا۟ ﴾ أي كانوا كأنّهم نادى كلٌّ منهم الآخر »[46]، والفعل ﴿فَنَادَوْا۟﴾ يصّور اشتراكهم جميعاً في حبكة المؤامرة وشدة عزمهم، كما يرسم صورة حيَّه شاخصة لعدد من الناس كلهم ينادي بعضهم بعضاً، وجملة ﴿ أَنِ ٱغْدُوا۟ عَلَىٰ حَرْثِكُمْ ﴾ تفسير

لقـــوله: ﴿فَنَادَوْاْ﴾ و﴿ٱغْدُواْ﴾ فعـــل أمـــر، والماضي منه **(غدا)** بمعنى ذهب إلى ما يريـد من عمل وقت الغدوة، وهـو الوقـت فـي أول النَّهار ما بين الفجر وطلوع الشمس.

وقوله ﴿عَلَىٰ حَرۡثِكُمۡ﴾ بمعنى **(إلـى حـرثكم)**. واستعير لفظ (على)؛ لما فيه من معنى الـتمكن والسيطرة كأنّه قيل: اغدوا تكونوا على حـرثكم أي مستقرين عليه[47]، وفي الحرف **(علـى)** – بدلالته على الاستعلاء – اسـتعارة تبعيـة فقـد استعير للاستيلاء والتمكن لمن أقبل على شـيء يملكه، وقد تمكن منه وثبت عليه؛ وذلك بجـامع السيطرة والتمكن والاستيلاء في كلٍ، ودُلَّ على هذه الاستعارة بالحرف الدال علـى الاسـتيلاء والتمكن.

وتكمن بلاغة هذه الاستعارة في الدلالة على تصوير شعورهم بالتّمكن من حرثهم والسـيطرة عليه، كمن يركب على جواد يتمكن منه فيسوقه ويركضه حيث أراد؛ وذلك إيذان مـنهم بمزيـد قوتهم وشدة تمكنهم مما في أيديهم من الحرث.

وقد أشار الزمخشري إلى هذا الملمح البلاغي بقوله: « فإن قلت: هلاَّ قيل: اغدوا إلى حرثكم، وما معنى **(على)**؟ قلت: لما كـان الغـدو إليـه ليصرموه ويقطعوه : كان غدواً عليه كما تقول : غدا عليهم العدو »[48].

وعلى هذا تكون تعدية الفعـل بـــ **(علـى)** لتشبيه الغدو للصرام بغدو العدو بجامع الاستيلاء والسيطرة ، ويمكن أن يحمـل المعنـى علـى التضمين النحوي فتكون تعديه الغدو بـ (على) لتضمنه معنى الإقبال كقولهم: يغدى عليه بالجفنة ويراح[49].

وإلى هذين الرأيين أشـار البيضـاوي بقولـه: «وتعديه الفعل بـ (على) إمَّا لتضـمنه معنـى الإقبال أو لتشبيه الغدو للصـرام بغـدو العـدو المتضمن لمعنى الاستيلاء[50].

وتلمس في إضافة الحرث إلى ضميرهم فـي قولهم: (حـرثكم)، دون أن يقولـوا الحـرث أو البستان ما يـوحي بشـعورهم أنّهـم أصـحابه المتمكنون منه، والمتصرفون فيه، وهذا في ظنّهم يخوّل لهم أن يفعلوا ما يشاءون فيه من الإعطاء أو المنع، فهم المتمكنون منه لا ينازعون فيـه، وهذا يتلاقى مع التعبير بالحرف " على ".

وقولهم: ﴿إِن كُنتُمۡ صَٰرِمِينَ﴾: أي عازمين على قطع ثمار جنتكم، ومنع المساكين من أخذ شيء منها. وتقييد الفعل هنا بـ **(إنْ)** الشـرطية فـي كلامهم على خلاف الأصل، والأصل فـي **(إنْ)** ألاّ يكون الشرط فيها مقطوعاً بوقوعه كما تقول لصاحبك: « إن تكرمني أكرمك وأنت لا تقطـع بأنَّه يكرمك »[51].

ولكنَّها استعملت هنا في مقام القطع بوقـوع الشرط فهؤلاء القوم عزموا على فعلتهم، فكـان مقتضى الظاهر أن يكون التعبير **بـإذا**[52]، ولكن عبَّر بـ**(إنْ)** على خلاف الظاهر لنكتة بلاغيـة وهي الإثارة وإلهاب من أبطأ منهم فلـم يبـادر وينهض للمشاركة في الصّرم .

وإلى ذلك أشار الطاهر بن عاشور / بقولـه: «وليس قـوله: ﴿إِن كُنتُمۡ صَٰرِمِينَ﴾ بشرط تعليـق، ولكنّه مستعمل في الاستبطاء، فكـأنهّم لإبطـاء

بعضهم في الغدّو قد عدل عن الجذاذ ذلك اليوم. ومنه قول عبدالله بن عمر للحجاج عند زوال عرفة يحرّضه على التهجير بالرواح إلى الموقف: « الرواح إن كنت تريد السنّة، ونظير ذلك كثير في الكلام »[53]، ويمكن أن يكون التعبير بـ **(إن)** هنا فيه دلالة عما يتردد في داخلهم من هاجس الخوف من عدم إتمام ما عزموا عليه، فهم وإن كانوا قد عزموا، وأكدوا قطع الثمر مبكراً قبل حضور المساكين، إلا أن نفوسهم مازالت متخوفة من عدم إتمام هذا الأمر على الوجه الأكمل خاصّة بعد معارضة أوسطهم كما سيأتي.

ثم يمضي السياق مصوراً حالهم بقوله: ﴿ فَٱنطَلَقُواْ وَهُمۡ يَتَخَٰفَتُونَ ٢٣ أَن لَّا يَدۡخُلَنَّهَا ٱلۡيَوۡمَ عَلَيۡكُم مِّسۡكِينٞ ﴾فالفاء في قوله ﴿ فَٱنطَلَقُواْ ﴾ حرف عطف والجملة معطوفة على جملة ﴿فَنَادَوۡاْ﴾ وللعطف بالفاء خاصيّة تدل على سرعة انطلاقهم دون مهلة أو تراخٍ، وفي اصطفاء الفعل **(انطلقوا)** دون غيره من مثل **(ذهبوا)** أو**(ساروا)** دلالة تصويرية خاصة فهو يصور اندفاعهم الشديد.

ويأتي وصفهم بقوله: : ﴿ فَٱنطَلَقُواْ وَهُمۡ يَتَخَٰفَتُونَ ﴾ موحياً بالحركة الخفية فهم يتبادلون الحديث في خفوت وهمس حتى لا يسمع كلامهم أحد وكأنَّهم يأتون منكراً أو يقدمون على فاحشة مبينة والتعبير بالجملة الفعلية ﴿يَتَخَٰفَتُونَ﴾ يفيد تجدد تخافتهم شيئاً فشيئاً ولا يكون ذلك المعنى لو عبّر بالجملة الاسمية وفي التعبير بالتخافت تصوير لاستحضار حالتهم العجيبة من بخلهم على الفقراء والمساكين فهم إنّما تسارّوا بحديثهم حتى لا يشعر بهم أحد من الفقراء والمساكين والجملة حالية، ولا يخفى ما في تصديرها بقوله **(هم)** من التبكيت والتوبيخ والتهكم بهم، حيث أكدّ تقديم الضمير **(هم)** وتصدرها الجملة الحالية وقوع التخافت وإصرارهم على أن تكون تلك حالهم .

ثم جاءت الآية التالية مفسرة لهذا التخافت وهو قولهم: ﴿أَن لَّا يَدۡخُلَنَّهَا ٱلۡيَوۡمَ عَلَيۡكُم مِّسۡكِينٞ﴾ فهذه الآية تفسير للفعل ﴿**يتخافتون**﴾ الذي فيه معنى القول أي ساروا يتخافتون يقول بعضهم لبعض: لا يدخلنّها اليوم عليكم مسكين وتوكيد الفعل المضارع بالنون الثقيلة لزيادة تحقيق ما تحالفوا عليه من الإصرار وحرمان المساكين والفقراء، ونلحظ في أسلوب هذه الآية معنى **كنائياً** مختفياً وراء المعنى الأصلي، يحتاج في إدراكه إلى تأمل ومعاودة نظر وذلك في قوله ﴿أَن لَّا يَدۡخُلَنَّهَا ٱلۡيَوۡمَ عَلَيۡكُم مِّسۡكِينٞ﴾ ، فأصل الكلام أن لا تدخلوها مسكيناً، ولكنّهم أوقعوا النهي على دخول المسكين، وأسند إلى ﴿**مسكين**﴾ فعل **النهي** عن الدخول والمراد نهي بعضهم بعضاً عن دخول المسكين إلى جنتهم والمعنى : لا يترك أحدُ مسكيناً يدخلها. وهذا من **(قبيل الكناية)** وهو كثير في استعمال النهي كقولهم: لا أعرفنّك تفعل كذا[54].

ويبدو لي والله أعلم أن ذلك أدعى إلى توكيد المعنى الذي استقرّ في نفوسهم وهو النهي عن تمكينهم من الدخول « والنهي عن الدخول للمساكين نهي لهم عن تمكينهم منه، أي: لا

تمكنوه من الدخول حتى يدخل كقولك: لا أرينَّك ههنا »[55]، وفائدة ذلك « المبالغة في نهي أنفسهم أن لا يدعوه يدخل عليهم »[56] وأن يبذلوا كلّ وسائل المنع والإحالة دون دخوله، حتى لو وصل ذلك إلى حدّ نهيه ومنعه من الدخول، وتحديد ﴿مسكين﴾ بالإفراد للمبالغة في المنع وهو نهي للمساكين عموماً وقيدوا منع المساكين بالظرف ﴿**اليوم**﴾ لأنَّه يوم الحصاد والجذاذ .

ثم جاء ختام هذا المشهد بقوله تعالى ﴿وَغَدَوْا عَلَىٰ حَرْدٍ قَٰدِرِينَ﴾ و﴿ **غدوا**﴾ أي ساروا إليها غدوة في أول النهار، وفي أثناء ما سبق تركيز واضح على المكون الزمني في القصة، فالقصّة بدأت بـ **(إذ)** الظرفية كما سبق ثم جاءت الإشارة بعد ذلك إلى ﴿ **ليصرمنّها مصبحين**﴾ و﴿**وهم نائمون**﴾ و﴿**فتنادوا مصبحين**﴾ و﴿**اليوم**﴾ و ﴿ **أن اغدوا**﴾ و﴿ **غدوا** ﴾ وجميعها ألفاظ تؤكد العناية بزمن الحدث.

وسيأتي الحديث عن المكون الزمني في بناء هذه القصة في الدراسة الأدبية إن شاء الله تعالى[57].

وختام هذا المشهد يصّور رصد الحدث ونموه، بكل دقائقه وتفصيلاته ،وذلك في قوله : ﴿وَغَدَوْا عَلَىٰ حَرْدٍ قَٰدِرِينَ﴾ و**(الحرد)** يأتي في اللغة على عدة معان منها: **(المنع)** يقال: حردت السّنة إذا منعت خيرها، وحاردت الناقة إذا منعت دَرَّها.

و(الحرد) بمعنى: **(القصد والسرعة)** يقال: حرد يحرد الشيء إذا قصده، والقاصد إلى الشيء بسرعة حارد .

ويأتي الحرد: بمعنى **(الانفراد)**، يقال حرد يحرد حرداً وحروداً إذا تنحى عن قومه ونزل منفرداً عنهم ولم يخالطهم[58].

وقد فسرت الآية الكريمة بجميع ما ذكر، وفي إيثار لفظ **(حرد)** دون غيره نكتة من نكت الإعجاز المتعلق بشرف اللفظ ورشاقته، وذلك من حيث المعنى من جهة ومن حيث تعلق الجار والمجرور بما يناسب كل معنى من معانيه من جهة أخرى.

أمَّا من حيث المعنى، فإن حمل على المنع والحرمان فهو ملائم لفعلهم وعزمهم أن يمنعوا المساكين من حقهم الذي اعتادوا عليه مصرين على ذلك بقولهم ﴿أَن لَّا يَدۡخُلَنَّهَا ٱلۡيَوۡمَ عَلَيۡكُم مِّسۡكِينٌ﴾.

وإن حمل على معنى القصد والسرعة فهو ملائم لفعلهم حيث ساروا في الغداة منطلقين بسرعة وقصد نحو جنتهم، وفائدة ذكره هنا مع أنه مدلول عليه فيما سبق بقوله ﴿فَتَنَادَوۡا مُصۡبِحِينَ ۝٢١ أَنِ ٱغۡدُواْ عَلَىٰ حَرۡثِكُمۡ إِن كُنتُمۡ صَٰرِمِينَ﴾ تأكيد «أنَّ قصدهم استمر مصاحباً لهم لم يتحّول ولم يتغير حتى وصلوا إلى جنتهم»[59].

وأمّا حمله على معنى الانفراد والانعزال فهو وصف دلّ عليه خروجهم مبكرين يتسارّون في حديثهم ومنعزلين لم يشعر بهم أحد.

وأمَّا شرف هذا اللفظ من حيث تعلق الجار والمجرور بما يناسب كل معنى من معانيه فهذا سرٌّ آخر من أسرار إعجازه.

فإن حمل على معنى المنع أفاد تعليق الجار والمجرور **(على حرد)** بـ (قادرين) تخصيصاً أي قادرين على المنع لا غير، أي منع الخير أو منع الفقراء من ثمار جنتهم غير قادرين على النفع[60].

وإن حمل الحرد على القصد والسرعة كان (على حرد) متعلقاً بـ (غدوا) مبيناً لنوع الغُدو أي غدوا غُدُوَّ سرعة واعتناء، والمعنى غدوا بسرعة ونشاط، ويكون (قادرين) حالاً من ضمير (غدوا) أي مقدرين أنهم قادرون على تحقيق ما أرادوا[61].

ونلمس في التعبير بقوله (قادرين) دون أن يقال: (غدوا حاردين) نوعاً من التهكم بهم والسخرية بحالهم، وهذا ما أشار إليه النيسابوري بقوله: «قوله (قادرين) يكون من باب عكس الكلام للتهكم أي قادرين على ما عزموا عليه من الصرام وحرمان المساكين »[62].

ووجه التهكم أنَّ شأن فعل القدرة أن يذكر في الأفعال التي يشق على الناس إتيانها، أمَّا قوله هنا (قادرين) فهو من باب قولهم: فلان لا يملك إلا الحرمان أو لا يقدر إلا على الخيبة[63].

المشهد الرابع : رؤية الجنَّة بعد إهلاكها وتوبتهم بعد ذلك

هذا آخر مشاهد هذه القصة، وهو المشهد الذي يتضمن رؤيتهم لجنتهم، وقد أحرقت، ودمرت بالكامل، ثم توبتهم بعد ذلك مباشرة، وهو المتمثل في قوله تعالى:﴿ فَلَمَّا رَأَوْهَا قَالُوٓاْ إِنَّا لَضَآلُّونَ ﴿٢٦﴾ بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ ﴿٢٧﴾ قَالَ أَوْسَطُهُمْ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ لَوْلَا تُسَبِّحُونَ ﴿٢٨﴾ قَالُواْ سُبْحَانَ رَبِّنَآ إِنَّا كُنَّا ظَٰلِمِينَ ﴿٢٩﴾ فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَلَٰوَمُونَ ﴿٣٠﴾ قَالُواْ يَٰوَيْلَنَآ إِنَّا كُنَّا طَٰغِينَ ﴿٣١﴾ عَسَىٰ رَبُّنَآ أَن يُبْدِلَنَا خَيْرًا مِّنْهَآ إِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا رَٰغِبُونَ ﴿٣٢﴾ كَذَٰلِكَ ٱلْعَذَابُ ۖ وَلَعَذَابُ ٱلْءَاخِرَةِ أَكْبَرُ ۚ لَوْ كَانُواْ يَعْلَمُونَ ﴾ ، وهو أطول المشاهد وأكثرها تفصيلاً.

وقد بدأ هذا المشهد بقوله: ﴿فَلَمَّا رَأَوْهَا﴾ و(لَمَّا) حرف يفيد اقتران جوابها بشرطها على الفور، أي لمَّا شاهدوا جنتهم، وقد أحرقت وتلفت، قالوا على الفور والبديهة مباشرة: ﴿إِنَّا لَضَآلُّونَ﴾ ، وفي هذا الأسلوب تعريض للمشركين من أهل مكة بأن يكون حالهم في تدارك أمرهم وسرعة إنابتهم كحال أصحاب هذه الجنة إذْ بادروا بالندم والاعتراف بالخطأ.

والضلال والضلالة : ضد الهدى والرشاد، يقال: أضللت فلاناً إذا وجهته للضلال والإفساد، ومنه التيه عن الشيء يقال: ضللت الطريق إذا لم تهتد إليه، ومنه ضللت الدار إذا لم تعرف موضعها[64].

والضّلال الذي نسبوا أنفسهم إليه في قولهم ﴿إِنَّا لَضَآلُّونَ﴾ يحتمل أن يكون ضلالاً معنوياً أي كانوا غير مهتدين ولا راشدين، وذلك على سبيل المجاز، وهو كناية عن كون ما أصابهم بسبب ضلالهم عن طريق الشكر ومنعهم حق الله تعالى في جنتهم، ويحتمل أن يكون الضلال حقيقياً والمعنى: أي قد ضللنا الطريق، وليست هذه

جنتنا لمَّا رأوها محترقة[65]، فكأنهم توهموا أنّهم ضلوا الطريق إلى جنّة أخرى؛ لأنَّ هذه لا تشبه جنتهم التي يعرفونها.

وأكدوا ضلالهم بإنَّ والجملة الاسمية واللام المزحلقة، وذلك «مبالغة في الاعتراف بذنبهم لربهم وإشعارُ بأنَّهم لا يشكون في وقوعهم بالإثم الذي استحقوا عليه العذاب »[66]، أو مبالغة في تأكيد ضلالهم عن جنتهم، وأن هذه ليست جنتهم وإنما هي جنة أخرى لا يعرفونها، وتأكيدهم الكلام بهذه المؤكدات بسبب تنزيل أنفسهم منزلة من يشك في أنّهم ضالون طريق الخير لقرب عهدهم. بالغفلة عن ضلالهم « أو تنزيل أنفسهم منزلة من يشك في أنَّهم تائهون عن طريق جنتهم، وفي ذلك إيذان بالتحسر والندم»[67].

وبل: حرف إضراب عمّا قبلها وإثبات لما بعدها، وهي حرف ابتداء إذا تلتها جملة كما في هذه الآية[68].

وعلى تفسير الضلال بالزيغ عن الهدى والرشاد يكون الإضراب في قولهم ﴿بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ﴾ إضراباً انتقالياً إلى ما هو أهم وأولى بالنسبة لحالهم، فكأنهم قالوا: لسنا مجرد ضالين بل نحن محرومون ومعاقبون بسبب معصيتنا[69].

وقد اختاروا لفظ الحرمان دون غيره؛ لأنهم أُخِذوا من باب نيتهم في حرمان المساكين والتعبير بالجملة الإسمية ﴿نَحْنُ مَحْرُومُونَ﴾ لتأكيد ثبات حرمانهم، وأنهم اختصوا بالحرمان الأعظم والأشمل؛ إذ ليس بشيء أمام حرمان المساكين والفقراء، والتعبير بلفظ الحرمان أيضاً يتوافق مع ما امتلأت به نفوسهم من مشاعر الحرمان المتعددة والمتزاحمة؛ «لقد تزاحمت لديهم معاني الحرمان، معنى العقوبة بالحرمان، ومعنى المنع من العطاء، ومعنى كونهم محرومين فقراء غير مرزوقين، فجاء التعبير عنها جميعاً بقوله ﴿بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ﴾ وهذا من بديع الإيجاز في القرآن»[70].

والكلام يفيد ذلك بطريق تقديم المسند إليه بأن أوتي به ضميراً بارزاً مع أنَّ مقتضى الظاهر أن يكون ضميراً مستتراً في اسم المفعول، فلما أبرز الضمير وقدّم كان ذلك مؤذناً بالاختصاص بهذه المعاني المتزاحمة من مشاعر الحرمان، التي تدفقت إلى نفوسهم أول ما رأوا جنتهم.

وإذا كان المقصود بالضلال ضلال الطريق إلى جنتهم يكون الإضراب في قوله: ﴿بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ﴾ إبطالياً، أي أبطلوا أن يكونوا ضلوا طريق جنتهم، وأثبتوا أنهم محرومون من خيرات جنتهم[71].

ثم يصور هذا المشهد حواراً بين أصحاب الجنة أنفسهم في قوله تعالى: ﴿قَالَ أَوْسَطُهُمْ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ لَوْلَا تُسَبِّحُونَ ﴿٢٨﴾ قَالُوا سُبْحَانَ رَبِّنَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ﴾ والمراد بـ﴿أَوْسَطُهُمْ﴾ أي أعقلهم وأفضلهم وأقربهم إلى الخير والعدل.

والوسط اسم لما بين طرفي الشيء، وأوسط الشيء أفضله وأحسنه، ولما كان وسط الشيء أحسنه وأفضله جاز أن يقع صفة كما في قوله تعالى : ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا﴾ [البقرة

:١٤٣]، أي عدلاً، واستعمل في معنى العدل لملاحظة أنه توازن بين طرفين متباعدين[72].

والاستفهام في قوله : ﴿أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ﴾ إنكاري يحمل معنى التوبيخ والتقرير، فهو قد وعظهم وحذرهم من حرمان المساكين حقهم، وقال لهم: لا تمنعوا حق المساكين. وحذف مقول القول لدلالة السياق عليه، وربما نلمس أن "الأوسط" حذف مقول القول هنا؛ لأنَّه لم يؤثر شيئاً فيما سبق، وطواه سريعاً؛ لأنه شاركهم واستجاب لرغبتهم، وعزم على ما عزموا عليه، فكان من الأنسب أن ينتقل سريعاً إلى حثهم على التسبيح والتوبة، وجاءت جملة ﴿قَالَ أَوْسَطُهُمْ﴾ بدون عطف؛ لأنه قول في سياق المحاورة جواباً عن قولهم ﴿بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ﴾.

و(لولا) حرف يفيد الحض والحث بمعنى (هلاَّ) والمعنى: لقد قلت لكم : هلاّ تذكرون الله وتتوبون من خبث نيتكم، وقد كان قال لهم حين عزموا على منع الفقراء حقَّهم: عظموا الله وتوبوا إليه عن هذا العزم السيء قبل حلول غضب الله عليكم وسخطه فعصوه، وأصروا على رأيهم، والمراد بـ(تسبحون) أي: تقولون سبحان الله، وتشكرونه على ما أعطاكم، وتنزهون الله عن أن يعصى في ما أمر، وتنزيهه عن أن يظن أنَّه حرمكم دون أن ترتكبوا ذنباً.

فكان جوابهم ﴿قَالُوا سُبْحَانَ رَبِّنَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ﴾ وهو جواب متضمن إقرارهم بأنَّ أوسطهم قد وعظهم فعصوه، وأنَّهم عادوا إلى رأيه نادمين معترفين.

و(سبحان) مصدر – ملازم النصب – من التسبيح وقيل : اسم مصدر من سبَّح المضاعف[73].

وفائدة التسبيح هنا الاعتذار عَّما حصل من خطئهم وسوء سلوكهم، والمعنى: ننزهك تنزيها عظيماً، وفي التسبيح؛ التنزيه البليغ من حيث الاشتقاق من السبح ومن جهة النقل إلى التفعيل، ومن جهة العدول إلى المصدر مالا يخفى، والمراد: أنزهك تنزيهاً حقيقياً[74].

وتأكيد جملة ﴿إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ﴾ بـ (إنَّ) واسم الفاعل (ظالم) الذي يفيد الثبات والرسوخ؛ لتحقيق الإقرار بالذنب وإظهار الندم والتوبة، وفي الجملة إيجاز حذف من خلال حذف مفعول ظالمين، وذلك لإفادة العموم وشموله لغير محدد، فلم يذكر مفعولاً به معيناً حتى لا ينحصر الحكم فيه، فشمل بذلك الحذف ظلم أنفسهم وظلم المساكين بمنعهم حقهم الذي أوجبه الله لهم.

ثم انتقلوا إلى لوم بعضهم بعضاً كما قال تعالى: ﴿فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَلَاوَمُونَ﴾ وذلك؛ لأنَّ منهم من ابتكر فكرة منع المساكين حقهم، ومنهم من زيَّن ذلك، ومنهم من تحمس لذلك، ومنهم من سكت وهو راضٍ، ولاشتراكهم جميعاً في هذا الجرم أصبح يلوم بعضهم بعضاً؛ يقول هذا لهذا: أنت أشرت علينا بهذا الرأي، ويقول ذاك لهذا: أنت خوفتنا الفقر، ويقول الآخر لغيره: أنت زّينت لنا هذا المنكر. واللّوم واللّائمة: العذل، وتلاوم الرجلان: لاَمَ كل واحدٍ منهما صاحبه، والملاومة: أن تلوم رجلاً ويلومك، وتلاوموا:

لام بعضهم بعضاً، وهي مفاعلة من: لامه يلومه لوماً إذا عذله وعنَّفه[75].

وإقبال بعضهم على بعض يتلاومون يصور حالة تشبه المهاجمة والتقريع، وصيغة التلاوم (مفاعلة) مع حذف متعلقه، يخيل في ذهن السامع صوراً من التقاذف والتراشق الواقع بينهم بهذا الإجمال البالغ غاية الإيجاز ودقته.

والإقبال: حقيقته إقبالك على الشخص بوجهك كأنك لا تريد غيره، مشتق من القُبُل: وهو الوجه، واستقبل الشيء وقابله: حاذاه بوجهه وهو ضد الإدبار[76]، وفائدة ذكر الإقبال في قوله : ﴿ فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَلَاوَمُونَ ﴿٣٠﴾ ﴾: تصوير حالة التلاوم الحاصل منهم، وتمثيل هيئة وقوعه بينهم، وأنَّ هذا التلاوم كان على هذا الوجه من المواجهة والمقابلة، وهذا أدعى في تقريع وتوبيخ أنفسهم[77].

ثم نادوا على أنفسهم بالويل و﴿ قَالُوا يَا وَيْلَنَا إِنَّا كُنَّا طَاغِينَ ﴾ ، وهذه الجملة يحتمل أن تكون تفسيراً لجملة (يتلاومون) ؛ أي يلوم بعضهم بعضاً بهذا الكلام على سبيل التقريع والتوبيخ، ويحتمل أن تكون جواب بعضهم بعضا عندما وقع منهم التلاوم، فكما أجمعوا على لوم بعضهم بعضاً أجمعوا كذلك على إجابة بعضهم بعضاً بهذا الكلام ، وويل كلمة مثل ويحْ، إلا أنَّها كلمة شدة وعذاب، يقال: ويله وويلي وفي النّدبة ويلاه!

والويل: حلول الشر والويلة الفضيحة والبلية، وقيل هو التوجع[78] وهذه اللفظة يدعو بها كل من وقع في شدة وبلوى.

والنداء في هذه الآية مستعمل في غير معناه الأصلي، وهو هنا في معنى التحسر فنلاحظ في قولهم (ياويلنا) أنَّهم نادوا الهلاك؛ للتحسر وفرط الندامة، أي: تعال فإنَّ هذا أوانك؛ إنّا كنَّا طاغين من جهة العمل، فمن كان حاله كذلك ينبغي له أن ينادي الهلاك تأسفاً على ما فات[79]، وفي الآية تشبيه الويل بالعاقل الذي يسمع ويدرك ويقبل على المنادي، ثم حذف المشبه به (العاقل)، ورمز له بشيء من لوازمه وهو النداء، وذلك على سبيل الاستعارة المكنية، والاستعارة هنا تفيد المبالغة في الندم والحسرة[80]، إذ النداء فيه تنبيه لأنفسهم وللمخاطبين بتذكر أسباب الويل، لأن الويل لا يطلب ولا يتأتى مناداته، وإنما المعنى المبالغة في ذلك حتى كأنهم ذهلوا فنادوا ما لا يعقل، كما أنه يوحي بأنه ليس بحضرتهم شيء يمكن أن ينادى إلا الويل، وكأنّ الويل قد أحاط بكل المكان، وغطى على جميع ما عداه، كما أن فيه تنبيهاً للمخاطب وإيقاظا له؛ ليتمكن في ذهنه أن هذه الحالة تقتضي الويل والندم والمبالغة في الدلالة على أن هذا وقت الندم.

وإضافة الويل إلى ضمير المتكلمين (ويلنا) للدلالة على اختصاصهم بهذا الويل وهذا الندم، وكأنّ غيرهم غير داخل في هذا النّدم وهذا الويل، وهذا يتلاقى مع خصوصيتهم في إقدامهم على منع المساكين، فكما أنّهم وحدهم الذين أقدموا على فعل هذا، فهم وحدهم أيضاً المخصوصون بالويل والندم والحسرة، ولذا كثرت في الآية ضمائر التكلم الخاصة بهم (ويلنا، إنّا ، كنّا ، نحن).

وتأكيد جملة ﴿إِنَّا كُنَّا طَاغِينَ﴾ بـ (إنَّ) واسم الفاعل الذي يدل على الثبات والرسوخ اعتراف منهم بارتكاب ظلم عظيم، ثم رجعوا إلى الرجاء والطمع في رحمة الله فقالوا ﴿عَسَىٰ رَبُّنَا أَن يُبْدِلَنَا خَيْرًا مِّنْهَا إِنَّا إِلَىٰ رَبِّنَا رَاغِبُونَ﴾.

وفي جمله (عسى ربنا) استلطاف وترجٍ، والدعاء بلفظ (ربنا) خاصّة على سبيل الاستعطاف طلباً لرحمته ولطفه وتكراره في الآية في قوله (إلى ربنا) مع وروده سابقاً للمبالغة في إظهار التضرع والإنابة، وإيثار لفظ (الرب) دون غيره لما فيه من معاني التربية والعناية واللطف، فالله عز وجل جعل في هذا البلاء النازل بهم تربية لهم ولطفاً بهم. وفي قوله: ﴿أَن يُبْدِلَنَا﴾ قراءتان سبعيتان، قرأ الجمهور: ﴿**أن يبْدلنا**﴾ بسكون الباء وتخفيف الدال، وقرأ نافع وأبو عمرو وأبو جعفر ﴿**أن يبدّلنا**﴾ بفتح الباء وتشديد الدال[81].

وقد ذهب الطاهر بن عاشور / إلى أن القراءتين بمعنى واحد[82]. والوجه عنده أنَّ بدَّل مثل أبدل وكلاهما جاء في القرآن الكريم مثل نزَّل وأنزل.

والذي يظهر – والله أعلم – أنَّ كل قراءة تحمل معنى يختلف عن معنى القراءة الأخرى، فأبدلت الشيء بالشيء : إذا أزلت الأول وجعلت الثاني مكانه وبدَّلت الشيء من الشيء: إذا غيّرت حاله وعينه، والأصل باقٍ كقولك: بدَّلت قميصي جبةً[83]. قال أبو العباس ثعلب: التبديل تغيير الصورة إلى صورة غيرها، والجوهرة باقية بعينها، والإبدال تنحية الجوهرة واستئناف جوهرة أخرى[84] وبناءً على ما سبق يكون المعنى مختلفاً في القراءتين.

فقراءة الجمهور ﴿**أن يبدلنا**﴾ من الفعل أبدل المهموز، وعليه يكون الإبدال بمعنى جعل شيء مكان شيء آخر؛ كإبدالك من الواو تاء في تالله، فكأنهم دعوا ربهم أن يبدلهم جنّة أخرى خيراً من جنتهم الهالكة.

وعلى قراءة التشديد ﴿**أن يبدّلنا**﴾ من الفعل "بدَّل" المضعف يكون التبديل بمعنى تغيير ذات الشيء أو تغيير صفته، فكأنّهم دعوا ربّهم أن يبدل حال جنتهم الهالكة إلى حالٍ أفضل وأحسن من الحال التي أصبحت عليها، والله أعلم.

وجملة ﴿إِنَّا إِلَىٰ رَبِّنَا رَاغِبُونَ﴾ تأكيد لندمهم وصدق توجههم إلى ربهم، والرغبة: الضراعة والمسألة، يقال: رغب إليه؛ أي: ابتهل وتضرع وسأل[85]، وفيها أيضاً تعليل لرجائهم أن يبدلهم الله خيراً من جنتهم، ولذا فصلت عن الجملة السابقة عليها، وأضافوا الرغبة إلى الله من غير تعيين للمرغوب فيه، وذلك لإفادة العموم، فيشمل كل مرغوب فيه من غير تحديد أمر بعينه.

وفي إضافة لفظ (رب) إلى الضمير ما ينبئ عن عظيم التضرع والتبتل وحسن التوسل إلى الله عزَّ وجل، وتأمل معنى القصر المستفاد من تقديم الجار والمجرور ﴿إِنَّا إِلَىٰ رَبِّنَا﴾ على متعلقه وهو ﴿رَاغِبُونَ﴾ والمعنى: إننا مبتهلون ضارعون

إليه لا إلى غيره، فجعلوا رجاءهم ورغبتهم إلى الله وحده لا إلى غيره، وهـذا منتهـى التنزيـه والابتهال(86).

وفي ختام هذه المشاهد جاء التعقيب مناسباً لما بنيت عليه القصة من التعريض بالمشركين من أهل مكة أن يلحقهم ما لحق أصحاب الجنة من البلاء والبؤس، فقال الله تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ ٱلْعَذَابُ ۖ وَلَعَذَابُ ٱلْءَاخِرَةِ أَكْبَرُ ۚ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ﴾، فقولـه ﴿كَذَٰلِكَ﴾ أي مثل ذلك الذي بلونا به أهل مكة وأصحاب الجنة عذاب الدنيا(87).

و ﴿كَذَٰلِكَ ٱلْعَذَابُ﴾ جملة من مبتدأ وخبر، وتقدم المسند ﴿كَذَٰلِكَ﴾ على المسند إليـه ﴿ٱلْعَذَابُ﴾ ؛ لإفادة القصر والاهتمام به بإحضار صورته في ذهن السامع(88)، والمعنى: العذاب الذي يرسـله ربُّنا في الدنيا على المكذبين المعاندين، والـذي من شأنه أن يؤثر في النفوس ازدجاراً ووعظـاً إنّما يكون مثل ذلك العذاب الذي نزل بأصـحاب الجنَّة.

والألف واللام في ﴿ٱلْعَذَابُ﴾ للعهد الـذهني، وفيه تهديد للمشركين من أهل مكة إن لم يعودوا إلى رشدهم ويتجهوا إلى ربهم كما فعل أصحاب الجنة أن ينزل بهم عذاباً مثـل هـذا العـذاب، والمعنى: إنَّ عذابكم الموعود مثل هذا العـذاب، والمماثلة بين المشبه والمشبه به مماثلة في النوع وليس في قوة العذاب ونوعه كما سـبق بيـان ذلـك(89). وقولـه: ﴿وَلَعَذَابُ ٱلْءَاخِرَةِ﴾ دلَّ على أن ﴿كَذَٰلِكَ ٱلْعَذَابُ﴾ عذاب الدنيا، ولا يخفى مـا فـي ذلك من الطباق، وما يبعثه من إيضاح المعنـى وإظهاره؛ ففي تصور أحد الضدين تصور للآخر وتأكيد له.

وهكذا جاءت هذه القصة بأوجز لفظ وأبلغه، فهي كما نلحظ امتـازت بـالتركيز والتكثيـف البلاغي، ودقة الوصول إلى جوهر الغرض عبر القول الموجز والإشـارة الدالـة التـي تشـيع بالإيحاءات المصورة التي أسهمت فـي تجسـيم المعاني وتصوير العواطف، وجعلت المشاهد في هذه القصة حيّة تنبض بالحياة والحركة.

المبحث الثاني : الدراسة الفنية

أولا : أسلوب القصّ:

القصّ كما سبق يرد فـي المعـاجم اللغويـة بمعنى اتّباع الأثر، يقال: خرج فلان قصصا في أثر فلان، وذلك إذا اقتصّ أثره، وقيل للقـاصّ: يقصّ القصص؛ لاتباعه خبرا بعد خبر، وسـوقه الكلام سوقا، والقصّ فعل القاصّ(90).

ويمكن أن نلحظ من الدلالة اللغوية أنّ القصّ هو : نقل الحادثة من صـورتها الواقعـة إلـى صورة لغوية ، وهو ما يسمى فـي الدراسـات الحديثة بأسلوب السرد الذي يعني : الحـديث أو الإخبار عن واقعة ما(91).

ودراسة السرد تكون بدراسة أسلوب القـصّ أي طريقة سرد الأحداث في العمل القصصي(92) وقد آثرت استخدام أسلوب القـصّ لخصوصـية القصص القرآني فهو قصص له سماته الخاصة التي تتحدد في ضوء أهدافه الدينية وأغراضـه السامية.

ولبناء القصص القرآني وعـرض مشـاهده وقصّ أخباره وسرد أحداثه، سمات وخصـائص

بلاغية وأدبية ترجع إلى التلاؤم والتناسق والنظم المعجز الذي بدت من خلاله المشاهد والأحداث.

لقد توالت الأحداث في القصص القرآني، وتلاحقت في اتساق بديع وتلاؤم عجيب؛ حيث تقصّ فيه الأخبار، وتسرد المشاهد في كلّ قصة سردا خاصّا.

والعمل القصصي عادة ما يقوم على محورين أساسيين : إمَّا الشخصية وإمَّا الحدث، بمعنى أن تكون الشخصية هي المرتكز الذي تدور حوله الأحداث أو أن تكون الأحداث هي المركز الذي تدور في محيطه الشخصيات، وقد تتوازن في العمل القصصي الشخصية والحدث فيتبادلان الأدوار معاً[93].

وفي القصص القرآني نرى أسلوباً معجزاً في توزيع المشاهد القصصية، فلا تجد موقفاً تستأثر به الشخصية وحدها أو الحدث وحده، وإنما يحصل الالتقاء بينهما في تناغم إعجازي فيتشكل من اجتماعهما مضمون هو الذي يصبح بطل الموقف، ويكون هذا البطل هو أبرز شخوص القصة، ويكون صوته أندى الأصوات فيها، وأقواها سلطاناً على المتلقين، ففي قصص القرآن «البطل هو القانون التاريخي المرتبط بعقيدة الإنسان وأخلاقه وسلوكه، البطل هو هذا القانون الذي تظهر نتائجه في أقوال وأفعال الإنسان المؤمن أو الكافر صحيحة الآثار في الجماعة التي يعبر عنها أو التي يعارضها.. البطل في منهج قصص القرآن هو الأسوة لغيره، وهو القدوة لمن يقتدي به؛ لأنه أعطى القانون التاريخي في قوله وعمله على أن الإيمان هو الطريق الصحيح لمسيرة البشر نحو هدف جماعي، وتقدم علمي، ونصر محقق»[94]، والمتأمل لمشاهد قصة أصحاب الجنّة يجد أنها مشاهد تستثير المتلقي، وتدعوه إلى المتابعة ومحاولة استشفاف ما تحويه من ملامح فنية وجمالية انعكست في ضروب الأسلوب القصصي.

إنَّ الناظر في مجموع آيات قصة أصحاب الجنَّة يجد أنَّها بلغت (١٧) آية تمثلت في (٩٢) كلمة دالّة؛ مما يجعل مسار القصّ مكثفاً جداً، ومشحوناً دلالياً رغم ضيق الحيّز الفضائي الحاوي للقصة، وهذا الإيجاز المكثّف سمة من سمات الإعجاز القصصي في القرآن الكريم يعجز عن الإتيان بمثله أفصح البشر، فـ « كلّ شيء ينتفع بفضله إلا الكلام فإنّ فضله يضر»[95].

النّص القصصي منذ لحظة البداية يقدم ملمحاً أسلوبياً يعتمده كبداية متنامية للحدث، إذْ يركز على **(الابتلاء)** ويجعله مقصداً حاضراً ويربط بين أصحاب الجنَّة وأهل مكة؛ لأخذ الدروس والعبر من هذه السردية الهادفة وشكلت هذه الإشارة الأسلوبية فضاءً واسعاً من التشويق والإثارة.

ولعلنا نلاحظ أنّ هذه القصة لم تبدأ من بداية حياة الأشخاص أو حياة أبيهم فترسم لنا أطوار نشأتهم، وإنمّا كان التركيز على حدث معين تتمثل فيه الوحدة بشكل أوضح وأعمق، ويبدو أسلوب القصّ هنا أشدَّ تماسكاً وأكثر استقصاءً لتتركز فيها

العظة والعبرة من خلال الاعتماد علـى الحـدث النامي والمتصاعد في مشاهد القصة.

أما صفة هذه الجنة وهيئتها فلم تتعرض لـه القصة بشيء؛ لأنه لا يتعلق بالعبرة الماثلة مـن الحدث، وإنما اكتفى بوصفها بأل التي تأتي كما سبق للكمال أو للعهد، ولذا جاء القصّ مكثفـاً لا يميل إلى الوصف أو رسم صورة تلـك الجنَّـة بينما في قصة صاحب الجنتين جاء القصّ واصفاً حال الجنتين وما فيهما مـن نخيـل وأعنـاب وزروع وما يحيط بهما من مياه متدفقة، كما في قوله تعـالى: ﴿وَٱضۡرِبۡ لَهُم مَّثَلٗا رَّجُلَيۡنِ جَعَلۡنَا لِأَحَدِهِمَا جَنَّتَيۡنِ مِنۡ أَعۡنَٰبٖ وَحَفَفۡنَٰهُمَا بِنَخۡلٖ وَجَعَلۡنَا بَيۡنَهُمَا زَرۡعٗا ٣٢ كِلۡتَا ٱلۡجَنَّتَيۡنِ ءَاتَتۡ أُكُلَهَا وَلَمۡ تَظۡلِم مِّنۡهُ شَيۡـٔٗاۚ وَفَجَّرۡنَا خِلَٰلَهُمَا نَهَرٗا ٣٣﴾ [الكهف: ٣٢-٣٣] .

وأسلوب القصّ هنا ينقلنا سريعاً إلى محـيط الحدث ، ويهيئ لنا أن نحيا فـي جـو مشـاهد القصة، والشخصية الرئيسة في هذه القصة هـم (أصحاب الجنة) والقصّ هنا ذهب بنا بعيداً عن الملامح والسمات الشخصية، وإنما تّم التعـرف عليهم من خلال صفاتهم الخلقية فهـم أصـحاب مكر وخداع وجشع وبخل.

ونلاحظ هذه الثنائية البارزة في هذه القصّـة من خلال حركتين بارزتين حركة الشخصـيات الظاهرة من خلال أفعالهم وأقـوالهم والحركـة الخفية في داخل نفوسـهم الشـحيحة الحاقـدة، والحركة الثانية تتمثل في (القوة الإلهية) بجنودها وأدواتها الخفية التي تتابع حركة الشخصـيات، وترصد تآمرهم، وتعاقب وتدمر بشكل سريع[96].

والقصّ يبدأ بإلقاء الضوء على اجتماع هؤلاء الإخوة وما دار بينهم من عزم وإصرار، وخـتم الاجتماع بتأكيد عزمهم بالقسم لزيـادة التأكيـد، واستيثاق بعضهم من بعض على أن ينفذوا ذلـك في الصباح الباكر، ويتناول القصّ بشكل سـريع هذا الاجتماع، ولا يفصّل فيـه، ويتـرك ذلـك للمتلقي؛ ليستحضر بمخيلته ما يمكن أن يحدث في أجواء التآمر والمكر.

وفي مقابل هذا الاجتماع الذي تمّ في جـوف الليل ينتقل القصّ إلى جانب آخر، حيث ينقل لنـا مشهد تدمير ليليّ يتزامن مع اجتماعهم، ينسف ما تآمروا عليه فيقع بهم الحرمان قبل أن يقع بغيرهم من الفقراء والمعوزين .

وربما يقول قائل: إنَّ المبادرة إلـى إعـلان النتيجة قبل أن يتهيأ أصحاب الجنة لأداء أدوارهم قد حرم المتلقين من جاذبية التشويق وأفقدتهم لذة المفاجأة، ولو تأمل من له أدنى بصرٍ أنَّ القـرآن الكريم ينوع في طريقة العرض ويتفنن في تنوع طريقة المفاجأة والمبادرة إلى إعلان النتيجـة لا يحرم من لذة المفاجأة، بل يزيد الرغبـة توقـداً وترقباً، فهو هنا يكشف سر المفاجـأة للمتلقـين، ويترك شخصيات القصـة عنـه فـي عمايـة، يتصرفون وهـم جـاهلون بالسـر، والمتلقـون يشاهدون تصرفاتهم عالمين، وأغلب ما يكون ذلك في معرض السخرية والـتهكم بهـم؛ ليشـترك المتلقون فيها منذ أول لحظة، وتتاح لهم السخرية من تصرفات الأشخاص الذين تدور حولهم أحداث القصة، فبينما نحن نعلم ما أصاب الجنَّة من دمار

وقصف، كان أصحاب الجنة يجهلون ذلك تماماً[97]!

ثم تأمل كيف يتابع القصّ تناميه، وهو يعرض مشهدهم صباحاً وهم يتنادون لتنفيذ مؤامرتهم ويسيرون بحركات سريعة يتمتمون بحديث خافت ويهمسون بكلمات غير مسموعة، ويتابع المتلقي هؤلاء النفر في تآمرهم سراً وهم يمنّون أنفسهم بالاستئثار بجميع الثمر وحرمان المساكين، وينظر إلى حركاتهم المضحكة وأحاديثهم الخافتة.

ويلتقط القصّ لوحة مفعمة بالصورة والصوت الدال والحركة الدائبة المتجددة حين عبَّر عنها قوله تعالى: ﴿وَغَدَوْا عَلَىٰ حَرْدٍ قَادِرِينَ﴾ فهي تصور سرعتهم وانطلاقهم نحو جنتهم مؤكدين ما أقسموا عليه، وعزموا على تبييته، ومفصحة في الوقف ذاته عن لوحة من التهكم والسخرية بهم، وهم لا يعرفون ما ينتظرهم من مفاجأة.

ويبلغ القص ذروته ومنتهاه بالوصول إلى عنصر (المفاجأة) حين يرون جنتهم وقد أحرقت ودمرت بالكامل، ويا لها من مفاجأة وتطور في الحدث والصراع النفسي، إنَّ أسلوب القصّ يبرز لنا أن المفاجأة كانت شديدة الوقع على نفوسهم فأصابتهم بضلالين: ضلال حسي في توهمهم أنهم قد ضلوا طريق جنتهم وعموا عن مكانها، وضلال معنوي أشدُّ وقعاً وأنكى في النفس إذْ عَدُّوا أنفسهم من الضالين الراسخين في الضلالة والغيّ.

وتتحقق في هذا المستوى الإثارة التي تحرك القارئ نحو الأحداث، وتشوقه لمتابعتها وإدراك ما فيها من حقائق وأسرار.

ومن الإشارات ذات الدلالة الموحية ما نلاحظه من أنَّ المشهد الأول قطع بمشهد غيبي مثير يفتح مجالاً عميقاً لالتقاط العبرة والعظة، وليدرك المتلقي أنَّه ليس وحده في هذا الوجود، وإنّما هناك قوة ترعى هذا الوجود وتدير نواميسه وفق قانون الثواب والعقاب، وأنَّ جنود الله غير متناهية؛ لأنَّ قدرته غير متناهية، فالكون كله بإنسه وجنّه، وأرضه وسمائه، وبره وبحره، وكل مخلوقاته مسخرة بأمره، وأنَّ سعادة الإنسان في الإذعان لمدبر هذا الكون والمتصرف في جميع شؤونه، وأنَّ شقاءه يكون في الانحراف عن منهجه وهديه.

ويظهر من تنامي القصّ أن هناك شخصية حاولت منعهم عن حرمان المساكين، وذكرتهم ووعظتهم، ولكنها لم تفلح في إقناعهم، فضعفت أمام إصرارهم وعزمهم، وقد سبق الإشارة إلى أن هذه الشخصية أحدثت نوعا من التردد والإرباك في نفوس الإخوة المتآمرين، ظهرت ملامحه في تقييد انطلاقهم بإنّ الشرطية بدل إذا؛ لإثارة من أبطأ منهم فلم يبادر وينهض؛ لإتمام ما عزموا عليه[98]، والقصّة لم تشر إلى دور هذه الشخصية أول الأمر بل نجد هناك تغييباً لها في أول النّص، وكأنّها كانت تعاين الأحداث وترقبها في خفاء حتى إذا حلَّت بهم الفاجعة صاح بهم منفعلاً: ﴿أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ لَوْلَا تُسَبِّحُونَ﴾ ، وهنا تبرز هذه

الشخصية لتقوم بدور فاعل في إدارة الحـــوار واستثمار المواقف.

ولعل مما سبق نلحظ في أسلوب القصّ التنقل السريع في تسلسل الأحداث والاعتماد على تنامي المشاهد وتتابعها سريعا ؛لإيجـــاد جـــوّ ملـــيء بالحركة والتفاعل، وكأننا أمام مســـرح حافـــل بالنشاط والحيوية والحركة الحاضرة .

ثم نجد بعد ذلك حواراً غاية في البراعة ينقلنا إلى بيئة الحدث، ويهيئ للمتلقين أن يعيشوا فـــي جو مشاهد القصة وأحداثها، وهو المتمثـــل فـــي قوله تعالى: ﴿ قَالَ أَوْسَطُهُمْ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ لَوْلَا تُسَبِّحُونَ ﴿٢٨﴾ قَالُوا سُبْحَانَ رَبِّنَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ ﴿٢٩﴾ فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَلَاوَمُونَ ﴿٣٠﴾ قَالُوا يَا وَيْلَنَا إِنَّا كُنَّا طَاغِينَ ﴿٣١﴾ عَسَىٰ رَبُّنَا أَن يُبْدِلَنَا خَيْرًا مِّنْهَا إِنَّا إِلَىٰ رَبِّنَا رَاغِبُونَ ﴾ .

ولعل من أهم وظائف الحـــوار فـــي قصـــة أصحاب الجنة الوظيفة الإيحائية حينما نســـمع الشخصيات تتحدث بلسانها بعيداً عن جو القصّ، فيأتي الحوار قطعة مدمجة في مشاهد القصـــة، ومتناغمة معها، لتجعل هذه المشاهد المعروضة نابضة بالحياة والحركة، ويأتي الحـــوار هنـــا؛ لتحقيق الهدف والمغزى من إيراد هذه القصـــة، وينقل الحوار هؤلاء من موقف التلاوم وشدة النـــدم إلى موقف الإنابة إلى الله والرغبة فيما عنده.

والمتأمل في جماليات هذا النص القصصـــي يلحظ اتكاءه على توظيف لغة النص من مفردات وتراكيب توظيفاً فنياً في بناء الأحداث وتصوير الشخصيات، وهي لغـــة دلاليـــة معجـــزة فـــي استيفائها لمعاني النص ومقاصده كما لمسنا ذلك في دراسة مشاهد القصّة وأحداثها.

ومما يميز القصّ حضور العنصـــر الزمنـــي وهيمنته على الأحداث، نجـــد ذلـــك فـــي عـــدة مفردات نحـــو نحو﴿مُصْبِحِينَ﴾، ﴿وَهُمْ نَآئِمُونَ﴾ ، ﴿فَنَادَوْا مُصْبِحِينَ﴾، ﴿اغْدُوا﴾ و﴿وَغَدَوْا﴾ وهكـــذا يمكن أن نتبـــين الـــزمن مـــن دلالات الأفعـــال وظروف الزمان؛ فكلمـــة ﴿ مُصْبِحِينَ ﴾ تـــوحي بالزمن الذي وقع فيه التخطيط وهو الليل، كمـــا تدل على تحديد وقت عزمهم على الصّرام فـــي الصباح الباكر، ونلمس تحديد زمن الهلاك الذي حلّ بجنتهم فـــي كلمتـــي ﴿طَآئِفٌ﴾ و﴿نَآئِمُونَ﴾ ، وتدلنا كلمتـــا ﴿اغْدُوا﴾ ﴿وَغَدَوْا﴾ علـــى زمـــن انطلاقهم لتنفيذ ما بيّتوه.

والزمن هنا ليس مجرد وصف جامد لا روح فيه، بل هو أصل في بناء الحدث إضافة إلى ما يؤديه مـــن دور كبيـــر فـــي ربـــط المشـــاهد، واستحضار الصور، وتطور المواقف ونموهـــا شيئاً فشيئاً.

ثانياً : تصوير المشاهد.

التصوير أداة مهمة يسخرها القرآن الكريم في قصصه؛ لعرض أحـــداث المشـــهد؛ ولتقريـــب الصورة إلى أذهان المتلقين.

وللقرآن الكريم سماته الخاصة في التّصوير، فهو عندما يعرض المشـــاهد المختلفـــة ويقـــرر موضوعاته المتعددة، لا يعتمد على خطاب العقل وحده؛ ليقنع بل يتجه بكل طاقات اللفظ، ويستخدم

جميع الوسائل؛ كي يثير وجدان القارئ أو السامع إثارة روحية ، فتتأثر التأثر التّام.

وقد أشار سيد قطب / إلى أن: «التصوير هو الأداة المفضلة في أسلوب القرآن فهو يعبر بالصورة المحسة المتخيلة عن المعنى الذهني والحالة النفسية، وعن الحادث المحسوس، والمشهد المنظور، وعن النموذج الإنساني والطبيعة البشرية. ثم يرتقي بالصّورة التي يرسمها فيمنحها الحياة الشاخصة أو الحركة المتجددة، فإذا المعنى الذهني هيئة أو حركة، وإذا الحالة النفسية لوحة أو مشهد، وإذا النموذج الإنساني شاخص حيّ، وإذا الطبيعة البشرية مجسّمة مرئية. فأمَّا الحوادث والمشاهد والقصص والمناظر فيردها شاخصة حاضرة؛ فيها الحياة وفيها الحركة، فإذا أضاف إليها الحوار فقد استوت لها كل عناصر التخييل »[99].

وآفاق التصوير في قصص القرآن الكريم أوسع من أن تدرك ، فهناك تصوير بالحركة، وتصوير بالإيقاع، وكثيراً ما يشترك الوصف والحوار، وجرس الكلمات، ونغم العبارات، وموسيقى السياق، في إبراز صورة من الصور تتملأها العين والأذن والحس والخيال، والفكر والوجدان[100].

والحركة في ألفاظ قصّة أصحاب الجنَّة يأخذ فيها التصوير طابع الدقة والإحكام، وهذا ما نلمسه في قوله تعالى: ﴿ فَطَافَ عَلَيْهَا طَآئِفٌ مِّن رَّبِّكَ وَهُمْ نَآئِمُونَ ﴿١٩﴾ ﴾ فالفعل (طاف) يصور طواف العذاب بجنتهم واستدارته حولها، حتى أتى عليها من جميع جوانبها، كما نلمس أنَّ هذا الفعل إضافة إلى تصوير الدقة والإحكام يوحي لنا بالمبالغة وسرعة نزول العذاب، لقد استحكم الإهلاك بطواف الطّائف، والطواف كان عليها لا بها؛ ولذا أصبحت كالصّريم.

والتعبير بالجملة الاسمية ﴿وَهُمْ نَآئِمُونَ﴾ للدلالة على الثبوت والدوام، وهي حالية، وفائدة إيرادها تصوير حالتهم وقت نزول العذاب بجنتهم.

ويستطيع المتأمل في ألفاظ القرآن الكريم أن يغوص في معنى الآية وما تخفيه من أسرار ومعانٍ دقيقة مصورة، وحينئذٍ يدرك مزية الإيحاء اللفظي في القرآن الكريم. تأمل قوله تعالى: ﴿ فَٱنطَلَقُواْ وَهُمْ يَتَخَٰفَتُونَ ﴾ فالفعل (انطلقوا) يصور شدة اندفاعهم، فالانطلاق: سرعة الذهاب نحو الشيء[101]، يقال : أطلقه فانطلق، وأصل الإطلاق التحرر من القيد، ومن عادة المقيد إذا أطلق من قيده أن ينطلق بسرعة، ومنه انطلاق الخيل في السباق، وإيثار هذا اللفظ دون غيره يصور لنا هيئة ذهابهم نحو جنتهم، ويرسم لنا صورة أناس يتسابقون نحو هدف معين.

وتأتي جملة ﴿يَتَخَٰفَتُونَ﴾ موحية بالحركة ومصورة لهيئتهم، إنّها ترسم في ذهن المتلقي هيئة هؤلاء النفر وهم يهمسون فيما بينهم، ويسيرون، وقد تقاربت أبدانهم، وأخذوا يميلون برقابهم نحو بعضهم مع دوران أبصارهم وتلفتُهم خشية أن يسمع كلامهم أحد، فعلى رغم أنهم وحدهم سائرون في الصباح الباكر لا يسمعهم ولا يراهم أحد من المساكين نجدهم يتسارُون في كلامهم، ولا داعي لهذا الإسرار، ولا حاجة إليه،

ولكن القرآن الكريم ينقل لنا هذه الهيئة الحافلة بالظلال؛ لتصور لنا ذلك الجشع وتلك الأنانية التي رسخت في نفوسهم وتغلغلت في قلوبهم، وجملة﴿يَنَخَفَنُونَ﴾ ألقت بظلالها على المتلقي، وبعثت في نفسه سؤالاً: ما هذا التخافت؟ وأيُّ شيء كانوا يسرون؟ فجاءت الجملة الثانية مفسرة لهذا التخافت ﴿يَنَخَفَنُونَ ﴿٢٣﴾ أَن لَّا يَدۡخُلَنَّهَا ٱلۡيَوۡمَ عَلَيۡكُم مِّسۡكِينٞ ﴿٢٤﴾﴾ ، ويشعر المتلقي وهو يقرأ هذه الآية أنَّهم كانوا يؤدونها بهمس شديد وإسرار فيما بينهم؛ فيخفض بها صوته، ويؤديها بنفس الأداء فيردها شاخصة حاضرة تدب فيها الحياة والحركة.

وتأمل جمال تصوير حالتهم النفسية بحركاتها وانفعالاتها في قوله تعالى: ﴿فَأَقۡبَلَ بَعۡضُهُمۡ عَلَىٰ بَعۡضٖ يَتَلَوَمُونَ ﴿٣٠﴾﴾ إنَّ هذه الآية تصور شدة الذهول الذي حلَّ بهم عندما شاهدوا جنتهم قد احترقت، لقد بلغ بهم الموقف أن تفرقوا في كل اتجاه غارقين في ذهول شديد وهلع كبير، ثم لمَّا أفاقوا أقبل بعضهم على بعض، بعد أن كان كلٌ منهم بعيداً عن صاحبه، فحصل بينهم هذا التلاوم، وكأنَّنا بهم وأصواتهم يختلط بعضها ببعض، وإقبال بعضهم على بعض يتلاومون يصوّر حالة تشبه المهاجمة والتقريع وصيغة التلاوم (مفاعلة) مع حذف متعلقه يخيل في ذهن السامع صوراً متحركة ناطقة من التقاذف والتراشق الواقع بينهم بهذا الإجمال البالغ غاية الإيجاز ودقته.

وتأمل لفظة ﴿لَيَصۡرِمُنَّهَا﴾ المشتقة من الصرم، وهو القطع وشدة الحصد، إنها بصيغتها وشدة جرسها وإيقاعها ومجيئها حافلة بالتوكيد توحي بشدة عزمهم وقوَّة إصرارهم ، ولما كان الجزاء من جنس العمل جعل الله جنتهم ﴿كَٱلصَّرِيمِ﴾ وهذا يتناسب مع لفظة ﴿لَيَصۡرِمُنَّهَا﴾ وهذه الجملة هي جواب القسم، وجاء على خلاف منطوقهم، ولو جاء عليه لقيل: (لنصّرمنّها) بنون المتكلمين، وفي اختيار الفعل المضارع دون غيره سرٌ بلاغي؛ لأنَّ ذلك هو الذي يصور حالهم بدقة إذْ الفعل المضارع هنا يدل على التجدد والحدوث، وعلى كون الحدث غير ثابت، بل هو طارئ ومخصوص بزمن معين، وهو الصباح الباكر، ولما كان الصّرام يحتاج إلى تجدد واستمرار حتى يفرغ منه كلياً جيء بالفعل المضارع الذي يناسب تجدد الصرام شيئاً فشيئاً حتى يتم كاملاً، وهكذا نجد أنَّ للتعبير بالمضارع قدرة تصويرية فريدة، فإضافة إلى كونه يدل على استحضار الصورة، نجده يمنح الأسلوب حركة معبرة وناطقة.

ولفظة **(الصَّريم)** وإن كان في معناها غزارة دلالية، وتعطي تأويلات عدة يحتملها السياق، نجد أنَّها أقرب إلى معنى الليل الأسود من شدة الاحتراق، يؤنس هذا المعنى أنَّ هذا العذاب والإحراق الذي نزل بجنتهم حلَّ بهم ليلاً، فناسب إيراد هذا المعنى؛ لقربه وشدة الاتصال به إضافة إلى ما لمسناه سابقاً من معنى المطابقة اللطيفة بين **(أصبحت) و(الصريم)**[102].

ولفظة **(الصّريم)** بصيغتها وشدة نطقها توحي بالتدمير والفناء بشدة وقوّة، كما تصور بدقّة شدة جبروت الخالق عزَّ وجل وقوة غضبه وبطشه.

إنَّ هذه الصّيغة وما بها من تشديد تحدث ضغطاً على اللسان، وإنَّ الدلالة تستمد قوتها من اللفظة ذاتها، وكل هذا يسهم في صورة الإيحاء ودقته.

وفي قولهم: ﴿يَٰوَيۡلَنَآ﴾ نلمس أنّ هذا النداء يصوّر حالة الأسى والحزن الذي أحاط بأصحاب الجنَّة، وكأنَّهم يقولون: ياويلتنا، ويا حسرتنا أقبلا، فهذا أوأنكما، فهم ؛ لفرط ما هم فيه من الندم يتخيلون أنَّ الويل والحسرة يسمعان أو يجيبان، وهذا يصوّر للمتلقي الحيرة التي أحاطت بهم، ويشعر بفرط الحسرة والندامة التي حلت بهم.

وهكذا نرى بوضوح دقّة التّصوير في هذه القصّة على ضيق فضائها اللغوي، فهو ألوان متعددة، لون يبدو في رسم الشّخصيات، وآخر يبدو في قوّة العرض، وثالث في تجسيم الانفعالات وإبراز العواطف؛ ورابع في اختيار اللّفظة النّاطقة والمعبرة؛ وبهذا تستحيل القصّة القرآنية حادثا يقع، ومشهدا حيّا؛ لا قصّة تروى وتحكى.

ثالثاً : الإيقاع الصوتي للمشاهد.

النّغم الإيقاعي ظاهرة بارزة في التعبير القرآني، فالمرء حين يسمع آيات القرآن الكريم تتلى، يشعر بهزة لإيقاعه المتميز، وهو إيقاع يأخذ بمجامع القلوب.

ويعد التنغيم الإيقاعي في قصص القرآن من أهم المنبّهات المثيرة للانفعالات الخاصّة المناسبة عند النطق بها، كما أنَّ له إيحاءً خاصاً لدى مخيلة القارئ والسامع على حدٍ سواء.

والمتأمل في مشاهد هذه القصة يجد أنَّ هذا الإيقاع يتألف من عناصر مختلفة ومتعددة منها: تآلف الحروف مخرجاً وصفة وحركة، وهذه سمة يختص بها القرآن دون غيره، فالتجويد والترتيل الإيقاعي للقرآن الكريم إنّما تحصَّل نتيجة؛ « لترتيب حروفه باعتبار من أصواتها ومخارجها، ومناسبة ذلك لبعضه في الهمس والجهر والشدة والرخاوة والتفخيم والترقيق والتفشي والتكرير وغير ذلك »[103].

وحين نتأمل فواصل آيات هذه القصة ، نجد أنَّها تنتهي بروي واحد متكرر وهو حرف النّون – ما عدا قوله " **كالصّريم**"، وتفرد هذه الفاصلة بحرف الميم مغايرة جميع فواصل القصة يوحي بشدة الإهلاك وتمام الإفناء، فتأمل: ﴿**يستثنون**﴾ – ﴿ **نائمون**﴾ – ﴿ **يتخافتون**﴾ –﴿**ضالون**﴾ – ﴿ **محرومون**﴾ – ﴿ **يسبحون**﴾ – ﴿**يتلاومون**﴾ –﴿ **راغبون**﴾ – ﴿**يعلمون**﴾، وتأمل ﴿ **مصبحين**﴾ – ﴿**صارمين**﴾ – ﴿**مسكين**﴾ – ﴿**قادرين**﴾ – ﴿ **ظالمين**﴾ – ﴿**طاغين**﴾ ، وهذا الاضطراد في فواصل الآي يحدث ضرباً خالصاً من الإيقاع في انسجامه واطّراد نسقه واتزانه على أجزاء؛ ولهذا كثر في القرآن ختم الفواصل بحروف المد واللين وإلحاق النون، وحكمته وجود التمكن من التطريب بذلك، وكان العرب إذا ترنّموا يلحقون الألف والياء والنون؛ لأنهم أرادوا مدَّ الصوت بها، ويتركون

ذلك إذا لم يترنموا. وجاء في القرآن على أسهل موقف وأعذب مقطـــع[١٠١]، وأغلـــب فواصـــل القرآن تنتهي بالنون والمـــيم «وهمـــا الحرفـــان الطبيعيان في الموسيقى نفسها»[104].

وثمة ترابط ظاهر بين شيوع هذا الحرف في القصة وبين مطلع السورة ذاتها حيـــث بـــدأت معتمدة على حرف النّون في قوله: ﴿نٓ وَٱلۡقَلَمِ وَمَا يَسۡطُرُونَ ١﴾.

فـــ ﴿نٓ﴾ في أول السورة ذكرت؛ لتـــدل على أن القرآن مؤلف من مثل حروفهم؛ فيكون ذلك تعريفاً لهم، ودلالة على عجزهم أن يـــأتوا بمثله، وكل سورة بدئت بحرف مـــن الحـــروف المقطعة فإنّ أكثر كلماتهـــا وحروفهـــا مماثـــل للحرف الذي ابتدأت به[105].

وختام فواصل آيات القصة بحـــرف النـــون، وشيوع هذا الحرف أيضاً في أثناء القصة، حيث تكرر أكثر من خمسين مرّة ساهم فـــي تحقيـــق الانسجام الصوتي الناتج من تجـــاور الحـــروف والكلمات، وفيه تنبيه إلى ســـرِّ هـــذا الحـــرف المعجز الذي افتتحت به السورة كما سبق؛ فكأنَّ شيوعه بهذه الكثرة، مع افتتاح السورة به؛ تمهيد للإعجاز الـــذي تحـــداهم الله أن يـــأتوا بمثلـــه، واستدراج لهم أن تلزمهم الحجة بأن يعرضـــوه على ما بين أيديهم من أساطير الأولين .

وأما أثره في الإيحاء فهذا الحرف من أكثـــر الحروف قدرة على تصـــوير مشـــاعر الـــنفس وتجسيدها، فنغمة هذا الحـــرف عبـــر المشـــاهد أضفت على القصة إيقاعاً صوتياً يتلاءم وجـــو الحزن والندم الذي أصاب أصحاب الجنّة.

كما نلحظ في فواصل آي القصة أن وجـــود حرفي المد (الياء) و (الواو) ساهم فـــي وحـــدة الآيات التركيبية ووحـــدة الانســـجام الصـــوتي والتوافق النغمي وما يلائمها من وحدة نفســـية، فتكرار حرف المدّ له أثر قوي في إيقاع النّص؛ لأن كل حرف من حروف المد يكّون مقطعـــين خلافاً لغيرها من الحروف، والمد يحتـــاج إلـــى جهد نفسي وهو الذي يتناسب مع مشاعر الأسى والحزن التي سيطرت على جو القصة.

وتتضافر صور الإيقـــاع فـــي هـــذا الـــنص القصصي، فالتكرار بشتى أنواعه يحدث نوعـــاً خاصاً من الإيقاع تستلزمه العبـــارة لأغـــراض نفسية وفنية، فتكرار: **حرف الصَّاد** في ﴿أَصۡحَٰبَ﴾ - ﴿لَيَصۡرِمُنَّهَا﴾ – ﴿**أصبحت**﴾ – ﴿**الصريم**﴾ – ﴿مُصۡبِحِينَ﴾ – ﴿صَٰرِمِينَ﴾ أضاف إلـــى الآيـــات نغمة صفيرية، وأشاع فيها نسجاً موسيقياً عـــالي الصوت، وإعادة هذا الحرف الصفيري علـــى « أبعاد متقاربة أكسب تكرار صوته ذلـــك الكـــلام إيقاعاً مبهجاً، يدركه الوجدان السليم ، حتى عن طريق العين، فضـــلاً علـــى إدراكـــه الســـمعي بالأذن»[106].

كما نلحظ أن شيوع هذا الحرف جعل الكلمات مفعمة بالصوت والحركة، والظل الذي تلقيه هذه الكلمات يتناغم مع مشهد العقوبة والانتقام الـــذي حلَّ بجنتهم، فالنتيجة الطبيعية لهذا الأســـلوب أن تتعالى معه الأصوات ويصاحبها قـــوّة؛ لتنبيـــه

المتلقين وتحذيرهم، وهذا ما أحدثه تكرار حرف الصاد. ومثل ذلك تكرار حرف الفاء في (فطاف – فأصبحت – فتنادوا – فانطلقوا – فأقبل) فتكرار حرف الفاء جاء؛ لأغراض منها، « زيادة في النّغم وتقوية الجرس»[107] وهو يوحي بسرعة الأحداث وتواليها، ونلاحظ أيضاً تكرار كلمتي (اغدوا) و(غدوا)، ففي الأولى جاءت بصيغة الأمر المباشر (اغدوا) في الزمن الحاضر، وفي الثانية بصيغة الماضي (وغدوا) ، وإذا كانت الإشارة الأولى في إطار النداء والتذكير لبعضهم فإن الصيغة الثانية تحولت إلى الشروع الفعلي، وانتقل الأسلوب من ضمير المخاطب إلى ضمير الغائب لاستحضار حالة ذهابهم وتقييد زمنه. ويتصل بهذا التكرار تكرار الضمير المنفصل (هم) في قوله: (وهم نائمون) وقوله: (وهم يتخافتون) وهذا التكرار في الضمير (هم) يفيد التأكيد، ويحدث إيقاعاً يستمد قوّته من المعنى، وهو إيقاع تتغلغل نغمته في النفس مصورة نوعاً من التهكم بهم والسخرية بحالهم.

ونجد في القصة تكرار الضمير (إنَّا) في قولهم (إنَّا لضالون) و(إنا كنَّا ظالمين) و(إنَّا كنَّا طاغين) و(إنَّا إلى ربنا راغبون)، وهذا التكرار يحدث إيقاعاً نغمياً، ويجعلنا نصغي إلى صوت الحرف المضَّعف، ويشعرنا بضغط قوي من الفك الأعلى لشدقي الفم، مشوب بنغمة إيقاعية تحمل أنيناً ينطوي على توبيخ خفي وتأنيب للنفس الخاطئة جاء في معجم مقاييس اللغة: « وأمّا الهمزة والنون مضاعفة فأصل واحد، وهو صوت بتوجع، قال الخليل: أنَّ الرجل يئنّ أنيناً وأنَّةً وأنَّاً وذلك صوته بتوجع »[108].

ولمفردات التراكيب أثر كبير في إحداث الإيقاع داخل العبارة، فنجد بعض الكلمات تحمل دلالات خاصة تسهم في تكثيف نغمة الإيقاع. ولذلك نجد في صيغة (ليصرمنَّها) و(كالصَّريم) عدة مؤكدات تحدث جرساً وضغطاً عند النطق بها، فأصل الكلمة يعني القطع والحصد، وهي تشير إلى القوة والشدة اللذين يسودان جو هذه الآيات، والتضعيف في حرفي (النَّون) و(الصَّاد) يحدث دوياً يشبه الانفجار الذي يرنّ معه الصوت مكسباً اللفظ نوعاً من القوة والفخامة.

وحرف (الرّاء) في أصل اشتقاق الكلمة (صَرَمَ)حرف تكراري[109] يرفرف اللسان حين النطق به، وهذا يعطيه صفة الفخامة والقوة، ثم إنَّ الراء أيضاً حرف مجهور، ينحبس النفس معه ثم ينطلق محدثاً ذلك الصوت المتكرر.

وفي القصة إيقاع آخر ناتج عن عرض أسلوب القصة فمخاطبة النفس – في مطلع القصة – بأسلوب التشبيه ﴿ إِنَّا بَلَوْنَٰهُمْ كَمَا بَلَوْنَآ أَصْحَٰبَ ٱلْجَنَّةِ ﴾ .

وأسلوب الحوار والاستفهام واستنطاق النفس في قوله تعالى: ﴿ قَالَ أَوْسَطُهُمْ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ لَوْلَا تُسَبِّحُونَ ﴿٢٨﴾ قَالُوا۟ سُبْحَٰنَ رَبِّنَآ إِنَّا كُنَّا ظَٰلِمِينَ ﴿٢٩﴾ فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَلَٰوَمُونَ ﴿٣٠﴾ قَالُوا۟ يَٰوَيْلَنَآ إِنَّا كُنَّا طَٰغِينَ ﴿٣١﴾ ﴾ ، له إيقاعه الخاص حيث تسوده روح من الحركة والإثارة؛ تبعث على التأمل والتدبر وحث النفس على

التذكر والاتعاظ، حتى تصير النفس كأنَّها تخاطب نفسها بنفسها، ولا يفوت المتأمل أن يلمس الإيقاع العام للقصة، وهو على درجة عالية من النّقاء والصفاء، حتّى أنّ من ينصت إليه، « فإنّه إنّما يسمع ضربا خالصا من الموسيقى اللغوية في انسجامه، واطراد نسقه واتزانه على أجزاء النفس مقطعا مقطعا ونبرة نبرة »[110]، وهذا سرّ عظيم التأثير من أسرار الإعجاز السماعي لهذا الوحي الإلهي المقدس.

الخاتمة

الحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات، والصلاة والسلام على أشرف الأنبياء والمرسلين نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين، وبعد :

فقد توجه هذا البحث إلى دراسة مشاهد القصّ في عرض قصة أصحاب الجنة في سورة القلم من الناحية الفنية، وذلك بغية إبراز السمات الجمالية لهذا النّص القصصي الذي يعد نموذجا مميزا للقصة القرآنية.

وقد خرج هذا البحث المتواضع ببعض النتائج التي من أهمها :

١- أن القصة القرآنية ليست عملا فنيا محضا يقاس بمقاييس الفن القصصي كما هو الشأن في القصة الفنية في التراث البشري، وإنما هي قصة لها سماتها الخاصة التي تتحدد في ضوء أهدافها الدينية وأغراضها السامية، وقد جاءت تخدم رسالتها الخاصّة بجماليات فنية خاصة تتجلى في إبداع العرض وجمال التنسيق وروعة الأداء.

٢- قدرة القصة القرآنية على تجسيم المعاني وتصوير الخواطر وبراعتها في العرض والأداء؛ مما أكسبها طاقة تأثيرية وإقناعية في نفوس المتلقين .

٣- التعبير المركز المشبّع بالإيحاءات بعث الحياة في النص القصصي، وجعله مشاهد حية تنبض بالحياة والحركة .

٤- التأكيد على قضية الوحدة الموضوعية للقصّة القرآنية، وبيان وجه مناسبتها للآيات التي قبلها في السورة إضافة إلى بيان أوجه المناسبة بين بداية القصة وخاتمتها مما يعكس وجها من وجوه الإعجاز القصصي في القرآن الكريم.

٥- الانفتاح الدلالي المعجز كان بارز الحضور في قصة أصحاب الجنة على جميع المستويات، فقد برز في المستوى الصوتي والمستوى الدلالي والمستوى التركيبي.

٦- بيان دور الفاصلة القرآنية في قصة أصحاب الجنة حيث حملت في طياتها أهدافا دلالية مطّردة ومتلازمة مع الهدف الجمالي للإيحاء ودلالة الوفاء بالغرض المطلوب.

وختاما أوجه النّظر إلى أهمية دراسة القصص القرآني دراسة تطبيقية تعنى بإبراز جماليات النّظم البلاغي والأدبي فيها، ففي ذلك بيان غزير وأدب جمّ، وسيبقى القرآن الكريم الكتاب المعجز الذي لا تنقضي عجائبه، ولا تنتهي غرائبه.

وصلى الله على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين، والحمد لله ربّ العالمين.

الهوامش

(١) للتوسع في تفاصيل هذه القصة ينظر: الجامع لأحكام القرآن، للقرطبي، ٢٣٩/١٨، وتفسير القرآن العظيم لابن كثير، ٤٠٧/٤ ، وزاد المسير لابن الجوزي، ٣٢٥/٨ .

(٢) دلالة الأصل اللغوي (جنن) تعود إلى معنى الستر والخفاء، يبدو بوضوح في الجَنَان بالفتح القلب لاستتاره في الصدر، والجنين مختفياً في رحم أمه، والجنون خفاء العقل، والجنُّ سموا بذلك لاختفائهم، ومن ثَّم قيل للأرض المغطاة بالشجر والزروع جنَّة، ثم أطلقت على جنَّة الآخرة، ولوحظ فيها معنى الاجتنان والخفاء، ينظر : لسان العرب، لابن منظور ٩٢/١٣، مادة (جنن).

(٣) نظم الدرر في تناسب الآيات والسور، برهان الدين البقاعي، ١٠٤/٨.

(٤) ينظر : معارج التفكر ودقائق التدبر، حبنّكة الميداني، ٢٣٦/١.

(٥) ينظر : تهذيب اللغة، الأزهري، ٢٥٤/٨، مادة قصص، ولسان العرب،٧٣/٧.

(٦) ينظر: البيان القصصي في القرآن، إبراهيم عوضين، ص ١٨.

(٧) التحرير والتنوير، ٢٠٣/١٢-٢٠٤.

(٨) ينظر: النكت في إعجاز القرآن، الرماني، ص ١٩٦.

(٩) التحرير والتنوير، ٢٠٤/١٢.

(١٠) ينظر: منهج الفن الإسلامي، محمد قطب، ص ١٥٧، وسيكولوجية القصة في القرآن، التهامي أنقرة، ص١٥٦وما بعدها.

(١١) ينظر: منهج القصة في القرآن، محمد شديد، ص٣٥، وما بعدها.

(١٢) خصائص القصة الإسلامية، مأمون فريز جرار، ص٧٥.

(١٣) ينظر: الوحدة الفنية في القصة القرآنية- محمد الدالي، ص١٨٣-١٨٤.

(١٤) ينظر : الكشاف، الزمخشري، ١٩٥/١.

(١٥) أسرار البلاغة، ١١٥- ١١٦.

(16) ينظر : تهذيب اللغة، الأزهري، ٢٥٤/٨، مادة قصص، ولسان العرب،٧٣/٧.

(17) ينظر: البيان القصصي في القرآن، إبراهيم عوضين، ص ١٨.

(18) التحرير والتنوير، ٢٠٣/١٢-٢٠٤.

(19) ينظر: النكت في إعجاز القرآن، الرماني، ص ١٩٦.

(20) التحرير والتنوير، ٢٠٤/١٢.

(21) ينظر: منهج الفن الإسلامي، محمد قطب، ص ١٥٧، وسيكولوجية القصة في القرآن، التهامي أنقرة، ص١٥٦وما بعدها.

(22) ينظر: منهج القصة في القرآن، محمد شديد، ص٣٥، وما بعدها.

(23) خصائص القصة الإسلامية، مأمون فريز جرار، ص٧٥.

(24) ينظر: الوحدة الفنية في القصة القرآنية- محمد الدالي، ص١٨٣-١٨٤.

(25) ينظر : الكشاف، الزمخشري، ١٩٥/١.

(26) أسرار البلاغة، ١١٥- ١١٦.

(27) ينظر: لسان العرب ، ١٤/ ٨٤، مادة (بلو).

(28) التحرير والتنوير ، ٧٩/٢٩.

(29) ينظر : الإيضاح ص ٢٤٩ ، والتلخيص ص ٢٧٤ .

(30) التحرير والتنوير، ٧٩/٢٩.

(31) المصدر السابق، ٩٠/٢٩.

(32) مفتاح العلوم، ص ١٧٨.

(33) ينظر: لسان العرب ، ١٢ /٣٣٦ مادة (صرم) .

(34) ينظر: التحرير والتنوير، ٧٦/٢٩.

(35) ينظر: حاشية القونوي على تفسير البيضاوي ٢٣٩/١٩.

(36) نظم الدرر، البقاعي، ١٠٦/٨.

(37) ينظر: الجامع لأحكام القرآن، ٢١١/١٨، والبحر المحيط، ٣١٢/٨.

(38) الكشاف ٥٩٤/٤.

(39) ينظر: أنوار الربيع في أنواع البديع، لابن معصوم، ٢٧٩/٦.

(40) ينظر: التحرير والتنوير ٧٦/٢٩.

(41) ينظر: تفسير أبي السعود ، ٩ /١٥ .

(42) ينظر: المصدر السابق، ٨١/٢٩.

(43) ينظر: لسان العرب ٢٢٥/٩ ، وقال الفرّاء: لا يكون الطائف إلا ليلاً واستدل بالآية ﴿وَهُمْ نَآئِمُونَ﴾ ورد عليه بأنه ليس لازماً ومن ذلك قول الله تعالى ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْاْ إِذَا مَسَّهُمْ طَٰٓئِفٌ مِّنَ ٱلشَّيْطَٰنِ تَذَكَّرُواْ فَإِذَا هُم مُّبْصِرُونَ﴾ فلم يتخصص بالليل، وقد تكلّمت به العرب ومن ذلك قول الشاعر:

أطفت به نهاراً غير ليلٍ

وألهى ربَّها طلبُ الرِّجال

ينظر: البحر المحيط ، ٨ / ٣١٢، و ينظر: لسان العرب ٢٢٥/٩ .

(44) ينظر: التحرير والتنوير، ٨١/٢٩.

(45) حاشية القونوي على تفسير البيضاوي، ٢٣٣/١٩.

(46) ينظر : الإيضاح ٢ / ٥٤٢ .

(47) نظم الدرر، ١٠٥/٨.

(48) كما في قوله تعالى: ﴿وَأُحِيطَ بِثَمَرِهِۦ فَأَصْبَحَ يُقَلِّبُ كَفَّيْهِ عَلَىٰ مَآ أَنفَقَ فِيهَا وَهِىَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا ..﴾، [الكهف: ٤٢] ، وقوله تعالى: ﴿..فَأَصْبَحُواْ لَا يُرَىٰٓ إِلَّا مَسَٰكِنُهُمْ كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْقَوْمَ ٱلْمُجْرِمِينَ﴾ [الأحقاف:٢٥] .

(49) ينظر : الكشاف ، ٤ /٥٩٥ ، وتفسير ابن جزي، لمحمد بن جزي الكلبي، ص ٧٨٥.

(50) ينظر : حاشية القونوي على البيضاوي ٢٣٤/١٩.

(51) ينظر : تفسير غرائب القرآن ، لنظام الدين النيسابوري ، ٦/ ٣٣٨ .

(52) ينظر : الفتوحات الإلهية بتوضيح تفسير الجلالين، لسليمان الشهير بالجمل، ٣٨٦.

(53) أسرار البلاغة، ص ١٢١، وينظر : أيضا الإيضاح ١٠/٣.

(54) ينظر : عروس الأفراح ، ٤ / ٢٨٩ .

(55) دراسات منهجية في علم البديع – الشحات أبو ستيت، ص ٥٠ – ٥١.

(56) نظم الدرر، ١٠٥/٨.

(57) التحرير والتنوير، ٨٣/٢٩.

(58) الكشاف ٥٩٥/٤.

(59) ينظر: الكشاف ٥٩٥/٤، والبحر المديد، ١٦١/٨ وتفسير أبي السعود، ١٥/٩.

(60) تفسير البيضاوي ٥١٦/٢.

(61) ينظر: الإيضاح ١٧٨/١.

(62) الأصل في (إذا) أن يكون الشرط فيها مقطوعاً بوقوعه كما تقول: « إذا زالت الشمس آتيك ». ينظر: الإيضاح ١٧٨/١.

(63) التحرير والتنوير ٨٣/٢٩.

(64) التحرير والتنوير ٨٤/٢٩.

(65) ينظر: الكشاف ، ٥٩٥/٤.

(66) نظم الدرر ، ١٠٦/٨.

(67) ينظر : ص ٢٦٢، من البحث.

(68) ينظر : تهذيب اللغة ، مادة حرد ، ولسان العرب ، ٣ / ١٤٥، مادة (حرد).

(69) معارج التفكر ودقائق التدبر ٢٤٠/١.

(70) ينظر : التحرير والتنوير ٧٩/٢٩.

(71) ينظر : المصدر السابق ٧٩/٢٩.

(72) تفسير غرائب القرآن، ٣٣٨/٦.

(73) ينظر : التحرير والتنوير ٧٩/٢٩.

(74) ينظر: لسان العرب، ٣٩٠/١١.

(75) ينظر: إعراب القرآن للنحاس١٢/٥. ونظم الدرر، ١٠٦/٨، والتحرير والتنوير،٨٠/٢٩-٨١.

(76) معارج التفكر ودقائق التدبر،٢٤٢/١.

(77) التحرير والتنوير، ٨٠/٢٩.

(78) ينظر: الجنى الداني في حروف المعاني، للمرادي، ص٢٣٥.

(79) التحرير والتنوير ٨١١/٢٩ ، والإضراب الانتقالي هو: أن يترك ما قبل (بل) على ما هو عليه فلا ينقض ولا يبطل، بل ينتقل إلى غرض آخر أهم وأولى، بنظر: الجنى الداني ، ص ٢٣٥، ومغني اللبيب، لابن هشام ، ١٥١ــ١٥٢.

(80) معارج التفكر ودقائق التدبر ٢٤٢/١.

(81) التحرير والتنوير ٨١/٢٩ ، والإضراب الإبطالي هو: أن يبطل ما بعد (بل) ما قبلها، ينظر: الجنى الداني ، ص ٢٣٥، ومغني اللبيب، لابن هشام ، ١٥١ــ١٥٢.

(82) ينظر : معاني الوسط في معجم لسان العرب، ٤٢٨/٧.

(83) الزاهر في معاني كلمات الناس، ٤٩/١.

(84) تفسير أبي السعود، ١٠١/٣.

(85) لسان العرب ، ٥٥٧/١٢، مادة (لوم).

(86) المصدر السابق، ٥٣٧/١١، مادة (قبل).

(87) ينظر : التحرير والتنوير، ٨٢/٢٩.

(88) ينظر: لسان العرب، ٧٢٠/١١، مادة (ويل).

(89) حاشية القونوي على تفسير البيضاوي ٢٣٩/١٩.

(90) ومثل ذلك نداء القبر، ونداء الشجر، ونداء الموتى، وظواهر الكون وكل ذلك؛ للدلالة على الحزن والتحسر والألم، وهو كثير في أشعار العرب.

(91) ينظر: النشر في القراءات العشر، لابن الجوزي، ٢٣٥/٢،والتيسير، للداني،ص١١٨.

(92) التحرير والتنوير ٨٣/٢٩.

(93) ينظر: إعراب القراءات السبع وعللها، لابن خالويه، ٤١٠/١.

(94) ينظر: الكتاب الموضح في وجوه القراءات وعللها، لنصر بن على الشيرازي، ٧٩٥/٢. و ينظر في توجيه القراءتين كتاب: الكشف عن وجوه القراءات السبع وعللها وحججها، مكي بن أبي طالب القيسي،٧٢/٢.

(95) لسان العرب ٤٢٢/١.

(96) الفعل : رغب إذا عدِّي بـ (إلى) كان معناه الضراعة والابتهال، وأمَّا إذا عُدِّي: بالحرف (عن) كان معناه الترك والإعراض عن الشيء، وإن عدِّي بالحرف (في) كان معناه إرادة الشيء والطمع في الحصول عليه، ينظر: كتاب الأفعال، ابن القطاع، ٢٨/٢ــ٢٩.

(97) بنظر : الكشاف ٥٩٦/٤.

(98) التحرير والتنوير، ٨٤/٢٩.

(99) ينظر: تهذيب اللغة، ٢٥٤/٨، ولسان العرب، ٧٤/٧.

(100) المصطلح السردي ، جيرالد برنس ، ص١٤٥، ترجمة عابد خزندار.

(101) ينظر: ينظر المصطلحات الأدبية الحديثة، محمد عناني، ص٦٠.

(102) القصص القرآني في منطوقه ومفهومه، عبد الكريم الخطيب، ص٤٠.

(103) قصص القرآن في مواجهة أدب الرواية والمسرح، أحمد موسى، ص٢١٢- ٢١٣.

(104) مقالات الأدباء ومناظرات النجباء ، على بن هذيل ، ص ١٢٧.

(105) ينظر: الدراسة الأدبية – النظرية والتطبيق، عبد السلام الراغب، ص١٨٩.

(106) ينظر: التصوير الفني في القرآن ، ص١٨٦.

(107) التصوير الفني في القرآن ، سيد قطب، ص٣٦.

(108) ينظر: المصدر السابق ، ص٣٧.

(109) ينظر: لسان العرب ٢٣٠/١٠ مادة (طَلَقَ).

(110) ينظر: ص ٣٣، من البحث

(111) ينظر: تاريخ آداب العرب، الرافعي ٢٢٧/٢.

(112) الإتقان في علوم القرآن ، ٢٠٨/٢.
(113) تاريخ آداب العرب، الرافعي ٢٢٧/٢.
(114) الإتقان في علوم القرآن ٢٢٧/٢.
(115) التكرير بين المثير والتأثير، عز الدين علي السيد ص٤٥.
(116) المرشد إلى فهم أشعار العرب، الطيب، ١ /٦٨.
(117) معجم مقاييس اللغة، ٣٠/١.
(118) الأصوات اللغوية، محمد علي الخولي، ص٩٥.
(119) إعجاز القرآن والبلاغة النبويـــة، الرافعـــي، ص ٢١٢ ـــ ٢١٣.

ثبت المصادر والمراجع

١. **الإتقان في علوم القرآن**، السيوطي، مطبعـــة الحلبي، عام ١٣٨٩هـــ.
٢. **الأدب وفنونه** ، عز الـــدين إســـماعيل ، دار الفكر العربي، القاهرة .
٣. **أسرار البلاغة** ، عبد القـــاهر الجرجـــاني ، تحقيق محمود محمد شاكر، مطبعة المدني ، القاهرة الطبعة الأولى عـــام ١٤١٢هـــ– ١٩٩١م
٤. **الأصوات اللغوية** ، محمد على الخولي، بدون بيانات.
٥. **إعجاز القرآن والبلاغة النبوية** ، مصـــطفى صادق الرافعـــي ، دار الكتـــاب العربـــي ، بيروت ، عام ١٤١٠هـــ–١٩٩٠م.
٦. **إعراب القراءات السبع وعللها** ، ابن خالوية ، تحقيق عبد الـــرحمن العثيمـــين ، مكتبـــة الخانجى ، القاهرة الطبعـــة الأولـــى عـــام ١٤١٣هـــ.
٧. **إعراب القرآن** لأبى جعفر النّحاس ، تحقيـــق زهير زاهد عالم الكتب ، مكتبـــة النهضـــة العربية ، الطبعة الثالثة ، عام ١٤٠٩هـــ – ١٩٨٨م.
٨. **أنوار الربيع في أنواع البديع** ، صدر الـــدين بن معصوم ، تحقيق شـــاكر هـــادي عـــام ١٣٨٨هـــ .
٩. الإيضاح فـــي علـــوم البلاغـــة ، الخطيـــب القزويني ،تحقيق محمد عبد المغنم خفـــاجي دار الكتاب اللبناني ،الطبعة الخامسة ، عـــام ١٤٠٠هـــ –١٩٨٠م
١٠. **البحر المحيط** ، أبو حيّان ، دار إحيـــاء التـــراث العربي ، بيروت ، الطبعة الثانية عام ١٤١١هـــ – ١٩٩٠م .
١١. **البحر المديد** ، ابن عجيبـــة ، دار الكتـــب العلمية ، بيروت الطبعة الثانية .
١٢. **تاريخ آداب العـــرب** – مصـــطفى صـــادق الرافعي، دار الكتـــاب، بيـــروت، الطبعـــة الرابعة، عام ١٣٩٤هـــ١٩٧٤م.
١٣. **التصوير الفني في القرآن**، سيد قطب، دار الشروق ط٧ ، عام ١٤٠٢هـــ.
١٤. **تفسير ابن جزيِ**، محمد بن جزي الكلبـــي ،تحقيق لجنة التراث ، دار الكتاب العربـــى، بيروت عام ١٤٠٣هـــ–١٩٨٣م .
١٥. **تفسير أبى السّعود** المسمى: إرشاد العقـــل السليم إلى مزايـــا القـــرآن الكـــريم ،لأبـــى السّعود، دار إحياء التراث العربي، بيروت .
١٦. **التفسير البياني**، عائشة بنت الشاطئ ، دار المعارف ، الطبعة السادسة ١٣٨٨هـــ .

١٧. **تفسير البيضاوي**، المسمى: أنوار التنزيل، تحقيق عبد القادر عرفات، عام ١٤١٦هـ ١٩٨٧م.
١٨. **تفسير غرائب القرآن** ، لنظام الدين النيسابورى.
١٩. **التكرير بين المثير والتأثير** –عز الدين على السيد ،عالم الكتب ، بيروت الطبعة الثانية ،عام ١٤٠٧هـ–١٩٨٦م.
٢٠. **تلخيص المفتاح** ، الخطيب القزويني ،دار الأفكار .
٢١. **تهذيب اللغة** ، أبو منصور الأزهري ، تحقيق إبراهيم الأبياري ، دار الكتاب العربي عام ١٩٦٧م.
٢٢. **التيسير** ، لأبي عمر الداني، تصحيح، اوتو يايرتزل، دار الكتب العلمية، الطبعة الأولى عام ١٤١٦هـ
٢٣. **الجامع لأحكام القرآن**، القرطبي ، تحقيق عبد الرازق المهدي ، دار الكتب العربية ، بيروت الطبعة الأولى عام ١٤١٨هـ .
٢٤. **حاشية القونوي علي تفسير البيضاوي** .
٢٥. **خصائص القصة الإسلامية** ، مأمون فريز جرار ، دار المنارة ، جدة ، الطبعة الأولى عام ١٤١٤هـ– ١٩٩٣م .
٢٦. **دراسات منهجية فى علم البديع** ، الشحات أبو ستيت ، الطبعة الأولى عام ١٤١٤هـ– ١٩٩٤م .
٢٧. **الدراسة الأدبية –النظرية والتطبيق** ، عبد السلام الراغب ، دار الرفاعي، سوريا، الطبعة الأولى عام ١٤٢٥هـ –٢٠٠٥م.
٢٨. **الزاهر في معاني كلمات الناس**، أبو بكر الأنباري ، مؤسسة الرسالة ' بيروت ، الطبعة الأولى عام ١٤٢١هـ–١٩٩٢م .
٢٩. **سيكولوجية القصة**، التهامي نقرة ، الشركة التونسية للتوزيع، تونس عام ١٩٧٤م.
٣٠. **الفتوحات الإلهية بتوضيح تفسير الجلالين**، سليمان العجيلي الشهير بالجمل، مطبعة الحلبي، القاهرة.
٣١. **قصص القرآن في مواجهة أدب الرواية والمسرح** ، أحمد موسى، دار الجيل، بيروت عام ١٩٨٧م.
٣٢. **القصص القرآني في منطوقه ومفهومه** ،عبد الكريم الخطيب، عام ١٩٦٤م .
٣٣. **الكتاب الموضح في وجوه القراءات وعللها** ، نصر بن علي الشيرازى ، تحقيق عمر الكبيسي ، مكة المكرمة ، الطبعة الأولى عام ١٤١٤هـ .
٣٤. **كتاب فعلت وأفعلت**، أبو حاتم السجستاني، تحقيق خليل العطية ، دار صادر ،بيروت .
٣٥. **الكشف عن وجوه القراءات السبع وعللها وحججها** ، مكى بن أبى طالب القيسي ، تحقيق محيي الدّين رمضان ، مؤسسة الرباط الطبعة الثانية عام ١٤٠١م .
٣٦. **لسان العرب** ، ابن منظور ، الطبعة الأولى دار صادر بيروت .
٣٧. **المرشد إلى فهم أشعار العرب**، عبد الله الطيب، دار الفكر، الخرطوم ،الطبعة الثانية، عام ١٩٧٠م.

٣٨. **المصطلح السردي**، جيرالد برنس، ترجمة عابد خزندار، المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة، عام ٢٠٠٣م.
٣٩. **المصطلحات الأدبية الحديثة**، محمد عناني، الشركة المصرية العالمية للنشر، لونجمان، القاهرة، الطبعة الثالثة عام ٢٠٠٣م .
٤٠. **معارج التفكر ودقائق التدبر** ،عبد الرحمن حبنكة الميدانى ، دار القلم ، دمشق الطبعة الأولى عام ١٤٢٠هـ-٢٠٠٠م
٤١. **معجم مقاييس اللغة** ،ابن فارس ،تحقيق عبد السلام هارون، دار المكتبة العلمية القاهرة
٤٢. **مفتاح العلوم**، السّكاكي ، تحقيق نعيم زرزور، دار الكتب بيروت.
٤٣. **مقالات الأدباء ومناظرات النجباء**، علي بن هذيل، تحقيق، عبد الرحمن الهليل، الطبعة الأولى، مؤسسة الرسالة، بيروت.
٤٤. **منهج الفنّ الإسلامي**، محمد قطب، دار الشروق،ظ١٣، عام ١٩٨٣م
٤٥. **النشر في القراءات العشر**، لابن الجزري، تقديم علي الضبّاع، دار الكتب العلمية، الطبعة الأولى عام ١٤١٨هـ
٤٦. **نظم الدرر في تناسب الآيات والسور** ، البقاعي ، تحقيق عبد الرزاق المهدي دار الكتب العلمية ، بيروت ،عام ١٤١٥هـ-١٩٩٥م